تل • انت القاتل •
رواية
بقلم
هبة جمال أسعد
انت القاتل

الإهداء

إلى الأشياء التي تمنيناها ولم تحدث

إلى كلِّ حالم.

كان الظلام دامساً كانت هند تركض كالمجنونة في أحد الطرقات الفرعية وهي تنظر حولها خائفة ويدها ملوثة بالدماء ما إن خرجت إلى طريق رئيسي حتى صدمتها سيارة جعلتها تتدحرج أرضاً بينما سقط هاتفها المحمول من جيبها وتحطم، اجتمع الناس حولها واتصل أحدهم بسيارة الإسعاف.

عاد عدي وهو زوج هند إلى المنزل كان رجلاً روتينياً مملاً بحث عنها في أرجاءه لكنه لم يجدها، جلس مستغرباً غيابها في وقت كهذا، أمسك هاتفه ليتصل بها لكنه وجد الرقم خارج التغطية.

كانت سالي هي الصديقة المقربة لهند شابة فاتنة تخرجت منذ خمس سنوات من الجامعة وتزوجت من الشاب الذي تحبه يوسف، كان شعرها أسوداً طويلاً وعينيها رماديتين، كانت تقيم مع شقيقتها فرح وهي طالبة في المدرسة الثانوية شعرها أشقر وسمراء البشرة خضراء العينين، كان يوسف شاباً وسيماً أسمر البشرة عصبي الطبع يقوم بالخدمة العسكرية الاحتياطية في محافظة دير الزور في سورية وهي محافظة صحراوية بينما كانتا تقيمان في إحدى ضواحي مدينة دمشق.

في تلك الليلة بينما كانت سالي نائمة على الأريكة مغطاة بأكملها حتى وجهها ولا يظهر منها إلا قدمها وطرف ثوبها، فُتِحَ باب الشقة من الخارج بواسطة المفتاح ودخل شخصٌ ملثمٌ يرتدي قفازات ويحمل بيده مسدساً، مشى بحذر من الممر واصلاً إلى الصالة، رأى سالي فتوجه نحوها، أمسك بالوسادة الموضوعة على الأريكة المجاورة وضغط بها على رأسها ثم وضع المسدس فوقها وضغط الزناد، التفت على صوت فرح الخائف والتي كانت تلفُ جسدها بمنشفةً بعد أن خرجت من الاستحمام (مَن أنت؟)

توجه نحوها وهي تعود بخطواتها إلى الخلف حتى وصلت إلى نهاية الصالة أمسكها من عنقها بقوةٍ وشدَّ مقبضه فلم تعد تستطيع الكلام، أخذ يضرب رأسها بالحائط الذي

خلفها، مدّت يدها نحوه بصعوبة وكشفت الغطاء عن وجهه فجحظت عيناها عندما رأت وجهه، استمر في الضغط على عنقها وضربها بالجدار حتى ماتت ثم تركها لينزلق جسدها على الأرض بعد أن رسم خريطة من الدماء على الحائط.

كان يوسف يُحضّرُ مفاجأة لسالي إنه قادمٌ بعد غياب دام لأكثر من شهر ونصف، كان يجلسُ على كرسي في المركبة المتوجهة إلى دمشق، يتخيل كيف ستتفاجأ سالي وستفرح بقدومه الغير متوقع، يرسم سيناريوهات عديدة للحظة اللقاء التي طال انتظارها، قاطع فرحه العجوز الذي كان يجلس بجواره

العجوز: عسكري إلزامي أم احتفاظ؟

يوسف: احتفاظ

يوسف: حالك كحال ابني ألم تسمع عن قرار تسريح سيصدر قريباً؟

العجوز: لا لم أسمع

كان يوسف شاباً عصبياً تختبئ الحنية بين غضبه كما كان غيوراً على سالي بشكل جنوني.

****

كانت صبرية أم هند تمشي أمام غرفة العمليات ذهاباً إياباً، أتى عدي الذي بدى منهكاً ليسألها عمّا حدث، أجابته بنبرة حادة: لقد أمسكوا بالرجل الذي دهسها وأخذ يحلف بأنها من ظهرت أمامه الغبي يريد أن نتنازل عن الشكوى، لقد تركها مرمية على الأرض وهرب كي ينجو والآن يطلب العفو.

عدي: كيف حالها الآن وماذا كانت تفعل هناك؟

صبرية: وما أدراني، لقد أتى الطبيب وسيخبرنا بنفسه عن حالها.

الطبيب: استطعنا إيقاف النزيف في الكلية والأمعاء ستبقى تحت المراقبة تحسباً لأي طارئ.

****

نزل يوسف من الميكروباص بعد أن وصل إلى الحي المقيم فيه في ريف دمشق كان يحمل حقيبته على كتفيه وفي يده يحمل وردةً حمراء، كان يغني: راجع عالديرة يا يوم من غربة وعذاب ياما نطرتك يا هاليوم تلاقي لحباب، راجع عالديرة يا يوم من غربة وعذاب ياما نطرتك يا هاليوم تلاقي لحباب.

صعد البناء وصولاً إلى الشقة، فتح الباب بكل تأنٍ دون أن يصدر صوتاً ودخل بهدوء، وضع الحقيبة على الأرض وتوجه حاملاً الوردة الحمراء وهو يمشي على رؤوس أصابعه كي يفاجئ سالي بقدومه، ما إن وصل إلى بداية الصالة حتى رأى فرح تستند على الحائط اقترب منها مستغرباً وجودها على الأرض فكادت عيناه أن تخرجا من مكانهما بعد أن رأى اللوحة التي رسمتها الدماء على الحائط وجثة فرح الهامدة على الأرض، سقطت الوردة الحمراء من يده واقترب منها ممسكاً بيديه كتفيها وهو ينظر نحوها مصدوماً : فرح يا صغيرتي، فرح، ما الذي حدث، من فعل بك هكذا، ماذا حدث، لطالما شعرت بأنك أختي، من، فرح أجيبي تكلمي.

اكتسحت الدموع عينيه والتفت نحو الصالة ليجد الوسادة التي وُضِعَت على سالي ملقاة على الأرض والدماء تقطر من أطراف الأريكة النائمة عليها، تمالك نفسه وقد غزى الخوف قلبه، انحنى أمام الأريكة و قام برفع الغطاء الذي كانت تغطي به سالي نفسها، أدارها نحوه بقوة لتسقط جثتها بين ذراعيه ويتناثر شعرها الطويل على وجهها، رفع شعرها عن وجهها وقد خرّت قواه: سالي حبيبتي لقد عُدت، إني هنا أنظري ، اشتقت لك، لماذا أنتِ صامتة، سااااالي حبيبتي، افتحي عينيك، اشتقت لنظراتك، يا الللللله، كيف لكل هذا الجمال أن يموت، يا رب، سالي يا روحي كيف سأحيا بلا روح، توقعت كل أنواع اللقاء إلا هذا، لا تقتليني برحيلك، لا تقتليني، لستُ حمل هذا العذاب، اشتقتُ لك، اشتقت لكل شيء يخصك، حتى لأفعالك التي تزعجني، لقد عدتُ قبل موعدي انظري أنا هنا، جئت إليكِ، افتحي عينيكِ، أريدُ أن أرى عينيكِ أرجوكِ، لا يا سالي لا، لا تموتي يا حبيبتي، لا تموتي لا)

كان يبكي بهستيرية رفع وجهه نحو السماء وهو يضمها إليه بقوة وقد تلوث بدمائها (يا الللللله، يا الللللله).

كانت أفكاره مشوشة خليط من الذكريات ذهبت ولن تعود حتى أسوأها، تذكر إحدى المرات التي ودعتّه فيها حين أخذت تُقفلُ له أزار بدلته وهي تنظر إلى عينيه مبتسمة (اعلم أني كرّستُ حياتي لك وأن عمري الحقيقي هو الأيام التي أقضيها معك وأيامي بلاك هي مجردُ أرقام لا قيمة لها، أريدك أن تعتني بنفسك وتعود بسرعة وتبقى سالماً كي يزيد عمري بوجودك).

****

اقترب الفجر وزادت الأسرار فتحت هند عينيها بهدوء نظرت حولها وهي تسترجع ما حدث، توقف حجرا عينيها عندما رأت عدي ووالدتها بالقرب منها، تسارعت أنفاسها من الخوف وأغمضت عينيها من جديد.

كانت منى وهي طالبة في المدرسة الثانوية وصديقة سابقة لفرح جالسة في غرفتها على سريرها، وعلى وجهها بقايا آثار كدمات وشعرها مقصوص بطريقة مشوهة، أذّنَّ الفجرُ، دخلت والدتها هالة إليها فوجدتها لاتزال مستيقظة، جلست بجوارها ونظرت إليها بحسرة (أنتِ ابنتي الوحيدة فرحتي الأولى والأخيرة، روحي التي انشقت عني وصرتُ أراها تكبرُ أمامي فأسعدُ لفرحها وأتمزقُ لحزنها، أرجوكِ يا ابنتي ، أرجوكِ أن تنامي وتأكلي و تعودي لمدرستك، إن ما حدث معكِ أوجع روحي وأبكاني، ارحمي نفسك وارحميني أنا و والدكِ كلانا نحبك ونتعذب لعذابك، تحدثي إلينا لا تكتمي ألمك، سنصلحُ كل شيء معاً وسنداوي جراحك التي سيهونها الوقتُ بإذن الله)

لم تجب منى على كلام والدتها، استلقت على السرير وغطت نفسها بالكامل وبدأت بالبكاء بينما وضعت هالة يدها على فمها وأخذت تبكي أيضاً.

خرجت هالة من غرفة ابنتها، أمسكت منى هاتفها النقال وقامت بتشغيله ثم دخلت على تطبيق الواتس لترى الكثير من الرسائل الصوتية التي قد أرسلها لها عمران (حبيبتي لماذا لا تجيبي، لماذا هاتفك مغلقٌ دوماً، أنا قلقٌ عليكِ بشدة، أريدُ أن أطمئن، الكثير

من الأفكار تعبثُ بي، هل علم والدك بحبنا وأراد عقابك، ما الذي حدث؟ أرجوكِ أجيبي، اتصلت بك لأكثر من ألف مرة، هل أخطأتُ دون أن أعلم، ما الأمر؟).

أعادت إغلاق هاتفها وبلّعت ريقها بينما بدأت الدموع تتسلسل إلى عينيها فغمضتهما محاولة النوم.

كان والد منى كامل هو مدير المدرسة الثانوية التي تدرس فيها، كان مديراً حازماً يحبُ منى ويخشى عليها من كل شيء.

****

بدأ الصباح يشقُ طريقه ولم يبلّغ يوسف الشرطة بعد، كان ينظرُ إلى الجثة التي لا تزال بين يديه وتأخذه ذكرياته بعيداً عن واقعه، من أيام الثانوية التي أحبا فيها بعضهما حتى لقائهما الأخير، تذكر إحدى المرات قبل زواجهما حين كانا يجلسان في الحديقة حدّثها ممازحاً: تقولين لي دوماً بأني أغلى ما لديكِ ما الذي يثبتُ لي صحة ما تقولين، فأنا لا أصدقك، بالتأكيد تحبين فرح أكثر مني فهي شقيقتك.

سالي: أتعني بأنك تحبُ شقيقتك أكثر مني؟

يوسف: بالتأكيد، لماذا صَمَتِ، أشعرُ بأنك قد حزنتِ.

سالي: حزينة لأني أحبك أكثر من أي شيء أما أنت فلا تبادلني نفس المشاعر.

يوسف(يضحك): مجنونةٌ أنتِ، أنا وحيدُ أهلي أنتِ أختي وأخي وكلُّ حياتي، جميعُ أقربائي فرضهم القدر عليّ أما أنتِ اخترتك بكامل إرادتي من بين كل البشر ومنحتك كلَّ ما في قلبي من حب.

ابتسمت سالي بخجل خلعت سلسلة فضية كانت ترتديها حول زندها لفّتها حول معصم يوسف.

سالي: هذه السلسلة هي ذكرى من ولدتي رحمها الله ولا يوجدُ أغلى منك كي أهديهِ إياها ويحافظ عليها، كلما رأيتها تذكرني.

عاد من ذكرياته نظر إلى السلسلة وإلى سالي، طبع قبلةً ناعمة على جبينها تمالك نفسه واضعاً إياها جانباً ثم أمسك بالهاتف الأرضي وقام بإبلاغ الشرطة.

كان آخر أيام المدرسة قبل بدء العطلة النصفية، دخل كامل غرفة ابنته منى و رفع عنها الغطاء فنظرت إليه نظرات تدمج بين اليأس والكسل.

كامل: اليوم آخر يوم في المدرسة قبل العطلة النصفية، ألن تذهبي معي؟ انهضي يا ابنتي، انهضي ورافقيني كما اعتدتُ عليكِ أن تفعلي، أصدقاؤك يسألون عنك، الجميع يحبونك.

تغطي منى وجهها مجدداً وتبدأ بالبكاء بينما تقفُ هالة بالقرب من باب الغرفة تواسي كامل بكلماتها: لا تضغط عليها بإذن الله بعد انتهاء العطلة ستراها كعادتها مرتدية ملابسها وتنتظرك ريثما تتم تناول الإفطار، ابنتي قوية ولن تستسلم لأي شيء أنا أعرفها.

هزَّ كامل رأسه بحزن: أريدها أن تخرج، أن ترى بأن الحياة مستمرة ولا تتوقف على أي ألم نعيشه، أريدها أن ترى صديقاتها أن تستمتع بالنشاطات التي تحبها،

يجب عليها أن تختلط بالناس حتى تتجاوز الأمر، انهضي يا ابنتي أرجوكِ أريد أن آخذكِ معي.

كان عمران وهو طالب جامعي ينتظر بالقرب من باب المدرسة لعله يرى منى، طال انتظاره وزادت خيبته عندما رأى كامل قادماً لوحده، رأى لمى وهي إحدى صديقات منى توجه إليها وسألها عنها لكنها لم تكن تعلم إلا أنها متوعكة صحياً وأنها على الأغلب مصابة بفايروس كورونا ومحظورة في غرفتها.

كانت سيارات الإسعاف وسيارات الشرطة تحيط بالبناء الذي تقيم فيه سالي، بدأت التحقيقات والبحث عن طريق المحقق هادي ومساعده نضال، أخذت الأسئلة تنهار على يوسف الذي لم يكن يطيق أن يُحرك لسانه.

هادي: هل لاحظت وجود شيء مسروق؟.

يوسف: لا أظن ذلك، كل شيء يبدو مركوناً في مكانه.

هادي: القاتل يمتلك نسخة من المفاتيح بماذا تفسر لي الأمر؟

يوسف: هل اتصلت بكم حتى أفسر لكم الأمر أم حتى تفسرون لي أنتم هذا وتجدون القاتل.

نضال: لا يوجد مسروقات أي أن الغرض هو القتل بحد ذاته.

يوسف: لماذا؟ إنهما فتاتان كالملائكة لا تصطدمان بأحد ولا تحبان المشاكل.

هادي: ربما الغرض هو الانتقام.

يوسف: هل تعبثان معي أم أنتما هنا لنخمن حل أحجية، لماذا لا تبحثان عن أدلة، كفّا عن الحفر في رأسي بكلماتكما.

هادي: أقدرُ ما أنت فيه لكن عليك أن تكون متعاون، أريدُ أن أرى تذكرة البولمان التي قدمت فيه.

يوسف(بصدمة): هل تتهماني؟؟!!!!.

كان ميشيل يقود سيارته، إنه شاب ثري منحرف في أواخر العشرينات، كان يمتلك عينين بلون أوراق الزيتون وشعراً أشقر اللون وبشرة حنطية، كانت عائلته بأكملها تقيم في الإمارات، مرّ من الحي الذي فيه شقة سالي، أبطأ القيادة وأخذ ينظر إلى سيارات الإسعاف والشرطة، أمسك هاتفه النقال وقام بالاتصال بهند لكنه وجد رقمها مغلقاً فقام بالاتصال بإيهاب وهو شاب في الثلاثينيات من العمر يعمل مع عدي زوج هند حارساً في أحد المعامل، لم يجب إيهاب على اتصاله، كان الفضول يزيد لدى ميشيل لمعرفة ما حدث لكنه قرر عدم النزول والمضي في طريقه، أعاد إيهاب الاتصال به.

إيهاب: ما الذي ذكرك بنا في النهار يا صديق الليالي؟.

ميشيل: ما الذي يحدث في الحي المجاور لكم سيارات الإسعاف والشرطة تملأ المكان.

إيهاب(بسخرية): سالي وفرح قُتلتا.

ميشيل: كفّ عن هذا المزاح السخيف.

إيهاب: إنها الحقيقة، أقسم لك بأنها الحقيقة.

سيطرت الصدمة على ميشيل انحرف بسيارته عن الطريق واصطدم بإحدى الأشجار، رفع رأسه ومسح الدم الذي سال من أنفه، أخرج كيساً يحوي على مادة مخدرة على شكل بودرة بيضاء وأخذ يستنشقه بنهم.

****

كان عدي وصبرية تتحدثان في غرفة هند بينما لا تزال نائمة.

عدي: لقد أقسم الرجل بأنها من ظهرت أمامه وقال بأنها كانت تبدو هاربة من شيء ما.

صبرية: وهل تصدقُ قليل الأخلاق هذا لو كان فيه خيرٌ لما تركها مرمية على الأرض وهرب.

عدي: أين كانت يا ترى؟

صبرية: وأين ستكون بالتأكيد عند صديقة من صديقاتها أو نزلت لشراء إحدى الحاجيات.

تحركت هند على السرير ثم فتحت عينيها، نظرت إليها صبرية: أنظر لقد استيقظت.

تنظر هند إليهما بجزع ثم تبدأ بالصراخ: ماذا تريدان مني أتركاني وشأني، أتركاني وشأني لا أريد أحداً.

صبرية: هند....

عدي: ماذا يحدث؟

هند(لوالدتها): لا تقتربي لا أريدُ أحداً، لا أريدُ أحداً، اذهبا من هُنا.

دخلّت بعض الممرضات إلى الغرفة وقمنّ بإخراج صبرية وعدي بينما جهّزت إحداهن حقنة مهدئة لوخز هند.

كان عدي ينتظر مع صبرية أمام الغرفة وقد أصابتهما الدهشة مما حدث، خرجت إحدى الممرضات: يبدو أنها مصابة بأزمة نفسية بسبب الحادث وخزتها بحقنة مهدئة وسيقوم الطبيب بفحصها والحديث إليها عندما تستيقظ، أرجو أن تتركاها ترتاح ولا تزعجاها بشيء.

ذهبت الممرضة وبدأت صبرية تحدُث نفسها: لقد جُنت الفتاة، أصبحتُ أمّاً لفتاة مجنونة.

عدي: أنا ذاهبٌ إلى عملي عندما تنتهي ابنتك من حالتها النفسية، اتصلي بي كي أعود.

صبرية: أريدُ مالاً، ليس معي ما يكفي من المال.

عدي: الرجل الذي دهسها ثري، أطلبي منه ما تريدين وابقي هند في المشفى حتى تتعافى تماماً وإن كان لديها أمراض قديمة عالجيها أيضاً.

صبرية: أصبحت تعجبني أيها الملعون لم أكن أعلم أن لديك عقلاً يعمل.

كان إيهاب جالساً في غرفة الحراسة الخاصة بالمعمل، دخل إليه عدي مستاءً وأخذ يروي له ما حدث بينما كان إيهاب يطرح عليه الأسئلة ويتفاعل مع حديثه، أشعل عدي سيجارته وأنهى حديثه: سأبقى هنا إلى أن تنتهي حالتها النفسية فأنا أكره المشافي وأكره المرضى.

****

كانت والدة عمران جالسةً في المطبخ تجهز الغذاء، كانت حفرُ الكوسا لحشيها، كان عمران يتجول في المطبخ والحيرة واضحة على وجهه.

أم عمران: اجلس يا بني أخبرني ما الذي يشغل بالك؟

جلس عمران وهو متردد فيما سيقوله: لا أدري.

أم عمران: هل هو أمر يخص ابنة الجيران منى؟

عمران: كيف علمتِ بذلك؟!

أم عمران: أنا والدتك وأعلم بكل شيء دون أن تتحدث.

عمران: فجأة لم تعد تتحدث معي ولم تعد تذهب إلى المدرسة يقولون بأنها مريضة لكنني غير مقتنع، يوجد شيء غير منطقي، أخشى أن والدها قد علم بالأمر وقرر حبسها في المنزل.

أم عمران: صحيح بأن كامل رجل متزن ويكره الخطأ لكنها ابنته الوحيدة والمدللة لن يقسو عليها بهذا الشكل، ربما تكون حقاً مريضة أو غاضبة منك لسبب لم تصارحك به نحن النساء نغضب لأسبابٍ سرية، عليك الالتفات لدراستك الآن كي تتخرج هذا الفصل من الجامعة وبالنسبة لمنى سأنزل لأزور والدتها بعد أن أنهي تحضير الغذاء وسأستطلع الأمر.

عمران: أريدك أن تخطبيها لي، وأعدك بأن أفعل ما في وسعي كي أتخرج هذا الفصل من الجامعة.

بدت أم عمران محتارة بعد طلبه: لا أظن بأن والدها سيقبل إنها لا تزال صغيرة وهي وحيدته.

عمران: والدها يحبني وإن حدّثته منى وحاولت إقناعه سيوافق.

أم عمران: أن يحبك شيء وأن يزوجك ابنته شيء آخر، أترك لي الأمر سأفعل ما أراه مناسباً.

أنهت أم عمران تحضير الغذاء بينما بقي عمران جالساً معها في المطبخ يتبادلان الأحاديث، ملأت صحناً من الكوسا المحشية بالأرز واللحم وغمزته قائلة: سأنزل إلى منزل الجيران في الحال لأطمئنك على حال حبيبة القلب.

فتحت هالة الباب لأم عمران وبعد تأهيل وترحيب جلستا في الصالة، أصرّت أم عمران على هالة كي تتذوق طبخها فأمسكت بقطعة من الكوسا وبدأت تأكلها: امممممم لذيذة سلمت يداكِ.

أم عمران: أرى هماً في عينيك وتعباً كثيراً هل أنتِ بخير؟

هالة: بخير الحمد لله.

أم عمران: أين حبيبتي منى لم أعد أراها تخرج مع والدها إلى المدرسة، هذا العام هو مصيري بالنسبة لها ليس وقتاً للدلال.

هالة: منى مريضة إنها تبقى طوال الوقت في غرفتها فهي مصابة بفايروس كورونا.

أم عمران: عافاها الله يا رب هل بإمكاني أن أدخل إليها لأطمئن إلى حالها سأبقى بعيدة عنها.

هالة (ارتبكت): سأدخل إليها لأرى إن كانت مستيقظة، إن وجدتها مستيقظة سأناديكِ.

أم عمران: لا بأس.

دخلت هالة إلى غرفة ابنتها، وجدتها مستلقية شاردة فيما حلَّ بها.

هالة: حبيبتي جاءت أم عمران، تريدُ أن تراكِ.

منى: لا، لا، إياكِ، لا أريد أن أرى أحداً هل ترين منظري يليق برؤية أحد.

هالة: حسناً اهدئي لا تغضبي، سأخبرها بأنكِ نائمة.

خرجت هالة والحزن يكسو وجهها: إنها نائمة.

أم عمران: بكل صراحة يا جارتي وصديقتي أريد أن أخبرك بأمر، إن ابني يرغب في خطبة ابنتك منى، هو في هذا العام بإذن الله سيتخرج من الجامعة وسيجد عملاً يليق به إن شاء الله، أتمنى أن تفكري أنتِ والأخ كامل في طلبي، أعلم أنها ابنتكم الوحيدة لكنها ابنتي أيضاً وستكون قريبة جداً منكم، أعلى بطابق فقط، ألن تقولي شيئا؟

هالة: لقد فاجئني الأمر، سأخبر كامل و سنتحدث مع منى ثم نبلغكم بالرد.

أم عمران: لا بأس يا عزيزتي سأنتظر الرد منكم.

كان عمران ينتظر بفارغ الصبر قدوم والدته، وما إن دخلت حتى استقبلها بسؤاله.

عمران: هل رأيتها؟

أم عمران: لا قالت بأنها نائمة، لا تحزن لقد قمتُ بخطبتها لك.

عمران: حقاً؟

أم عمران: نعم وسيردون علينا خلال بضعة أيام.

****

كان المحقق هادي يقود سيارته وبجواره نضال، كان نضال متحمساً لاكتشاف القاتل وبعد تفكير مستمر.

نضال: إنه هو.

هادي: من هو؟

نضال: القاتل، إنه زوجها، هو من سيستفيدُ من قتلها، المنزل لها ولشقيقتها ومنزل عائلته متضررٌ من الحرب وغير صالح للسكن، ربما يحب فتاة أخرى وقرر قتلهما للسيطرة على المنزل، سأقص يدي إن لم يكن هو وكل هذا الحزن تمثيل لا أكثر.

هادي: والتذكرة أيها الذكي بحسب وقتها فإنه يستحيل عليه الوصول إلى المنزل بتاريخ الجريمة حسب تقديرات الطبيب الشرعي، التحقيق لا يزال في بدايته وتقرير الطبيب الشرعي لم يصدر بعد.

نضال: أتحداك بأنه هو ربما طلب من أحدهم أن يقطع تذكرة باسمه أو أرسل أحدهم لقتلها، لماذا لم يخبرنا فوراً عن حدوث الجريمة؟ لقد أراد أن يرتب أموره ثم أبلغنا.

وصلا إلى مدرسة فرح مع نهاية الدوام، كنَّ الطالبات يغادرن المدرسة مشيّا إلى الداخل فشاهدا كامل يغلق باب مكتبه.

هادي: مرحباً، هل أنت المدير؟

كامل: نعم.

هادي: معك المحقق هادي من قسم الأمن الجنائي، أدخل دعنا نتحدث.

دخل كامل وعلامات الدهشة بادية على وجهه ثم جلس الجميع.

كامل: ما الأمر حضرة المحقق لقد أقلقتني.

هادي: نريد أن نتحدث معك بشأن طالبة لديك في المدرسة قُتلَت الليلة الماضية ولقد أسرعنا إليك لأننا نعلم بأنه آخر يوم دوام قبل بدء العطلة النصفية.

كامل: ماذا تقول؟ طالبة وقُتِلَت! من هي وكيف؟

نضال: فرح، فرح المعتز إحدى طالبات الثانوية العامة الفرع العلمي.

شَرَدَ كامل قليلاً: فرح! أظن بأني قد عرفتها شقراء وعينيها ملونة؟

هادي: هي بذاتها، ماذا تعرف عنها، هل تشاجرت مع أحد؟ هل لها مشاكل مع أحد؟

كامل: طالبة كغيرها من الطالبات لم تفتعل أي مشكلة ولم تؤذي أحد، لم يشكو أحدٌ منها من قبل.

هادي: نريد الحديث إلى المعلمين، إلى زميلاتها في نفس الشعبة، أي لأحد من الممكن أن يعطينا معلومات قد تفيدنا.

كامل: كما ترى سيدي الجميع قد غادر والكثير من المعلمين والطالبات الذين ليسوا من دمشق قد سافروا لقضاء العطلة في محافظاتهم وقراهم كما أن قسماً كبيراً من الطالبات تأتين إلى المدرسة من المناطق المجاورة فهي مدرسة منضبطة تقع في ضاحية قريبة من مدينة دمشق والجميع يرغب في ارتيادها.

نضال: إذاً لا يمكنك مساعدتنا بشيء؟

كامل: إنا لله وإنا إليه راجعون سأبحث في عناوين الطالبات عن طالبات في نفس شعبتها لعلي أجد شيئاً مفيداً على الرغم من أن العناوين معظمها غير مكتملة ودقيقة.

نقرت إحدى المعلمات (دلع) على الباب لتودع المدير قبل ذهابها، فطلب هادي منها الجلوس، انصدمت عندما علمت بأنهما من الأمن الجنائي وجلست تجيب على أسئلتهما بخوف.

كامل: إنها المدرسة دلع، تدرس اللغة الإنكليزية للمرحلة الثالثة الثانوية.

هادي: ممتاز، هل تعرفين الطالبة فرح المعتز؟

دلع: نعم ما الأمر؟

هادي: لقد قُتِلَت؟

دلع: يا لطيف ماذا تقول؟

هادي: أرجوكِ أجّلي الصدمة لوقت آخر وزوديني بما تعرفينه عنها، هل لها مشاكل مع أحد؟ من هم صديقاتها المقربات؟

دلع: أراها دوماً وحيدة إنها غير اجتماعية، شخصيتها قوية لكنها لا تدخل في المشكلات، لا أظن بأن لديها صديقات مقربات، تجلس بجوارها فتاة اسمها لمى لكنهما لا تبدوان صديقتان.

نضال: هل تعلمين أين تقيم لمى أو لديك معلومات عنها؟

دلع: لدي رقم هاتفها النقال فهي تتصل بي أحياناً عندما تحتاج مساعدة دراسية.

يخرج هادي جواله: جيد زوديني بالرقم.

عاد كامل إلى المنزل بائساً وجد هالة جالسةً تبكي في الصالة بعد أن سمعت من إحدى جاراتها خبر مقتل فرح، جلس بجوارها.

كامل: لماذا تبكين؟

هالة: أبكي على ماحلَّ بابنتي وعلى فرح التي قُتِلت بعمر الورد، أيُ سفاحٍ استطاع أن يفعل ذلك.

كامل: لا حول ولا قوة إلا بالله يبدو أن يوم القيامة قد اقترب لقد خلت القلوب من الرحمة، رغم كل شيء عليكِ أن تتماسكي إياكِ أن تعلم منى بالأمر فهي لا ينقصها حُزن، لقد أتى المحقق إلى المدرسة وسألني بشأن فرح، لقد أخفيت عليه الصداقة

القديمة التي كانت تجمعها بمنى فأنا لا أريدُ أن تعلم منى وأن يتعبوها بطرح أسئلة عقيمة لا تفيد بشيء، بل ستسوء حالة منى بسببها أكثر فأكثر.

****

فتحت هند عينيها فوجدت نفسها وحيدة في الغرفة وبجوارها موبايل عدي مَنسي، نهضت بتأنٍ ضاغطةً على أوجاعها وفتحت النافذة القريبة منها وألقت بالهاتف النقال منه ثم عادت للاسترخاء، دخلت إليها والدتها وقد اشترت ما يحلو لها من الطعام بالأموال الطائلة التي أخذتها من السائق الذي دهس هند.

صبرية: هند هل استيقظتِ؟

هند: أتركوني وشأني متعبة، لا أريدُ أحداً.

صبرية: أنتِ حُرة سأذهب لتناول طعامي في مكان أفضل من هذا.

غادرت صبرية الغرفة فوجدت أمامها عدي.

صبرية: أراك عُدت هل اشتقت لنا؟.

عدي: هل رأيتِ هاتفي النقال؟ أظنُ بأني قد تركته هنا.

دخل برفقة صبرية إلى الغرفة بينما تظاهرت هند بالنوم فلم يجد فيها شيء.

صبرية: لم أنتبه لوجود هاتفك لقد أمضيت معظم وقتي خارجاً، ربما تكون إحدى الممرضات قد سرقته سوف أوبخهن أشد توبيخ وأخبر جميع الأطباء.

عدي: لا توبخي أحد لست متأكداً بأني قد تركته هنا ربما سقط من جيبي لقد سلبت ابنتك المجنونة مني عقلي.

صبرية: ما هذا الاستياء والتشاؤم الذي أنت فيه يمكنك شراء هاتف أحدث من هاتفك المهترئ بسبب ابنتي أيها المغفل، لقد دفع الرجل لنا الكثير من المال اذهب واشتري ما تريد لكن إياك أن تعود لتستدين مني بعد أن تصرف ما في جيبك فأنا أعرف طبعك ولن أدينك قرش واحد.

****

كانت لمى تجلسُ في إحدى المقاهي وهي متوترة، جاء إليها عمران ملهوفاً بعد أن طلبت منه المجيء بسرعة.

عمران: ما الأمر؟ هل حدث شيء لمنى؟

لمى: اجلس لنتحدث

عمران: لماذا طلبتِ مني القدوم حالاً؟

لمى: أنا خائفة لقد اتصل بي المحقق وطلب مني الحضور لفرع الأمن الجنائي وأنا أريد منك أن تذهب معي، أظن بأن الأمر يتعلق بمقتل فرح.

عمران: لقد سمعت بالخبر ليرحمها الله.

لمى: تحدث إلي المدير كامل والد منى وطلب مني أن لا أتحدث عن الصداقة السابقة التي جمعت منى بفرح، قال لي أن منى مريضة ولا ينقصها أسئلة متعبة وعديمة الفائدة فقد انقطعت علاقتهما منذ زمن، تخيل أن تكون منى من قتلت فرح؟.

عمران: ما هذا الهراء، إن منى لا تقوى على قتل حشرة.

لمى: هل ستذهب معي؟ ستنتظرني في الخارج، ما رأيك؟

عمران: سأذهب.

شدُت لمى على يد عمران: شكراً.

أخذ هادي يطرح الأسئلة على منى في مكتبه لكنه لم يستنتج أي معلومات جديدة وبدأ يقتنع بأن القاتل لم يكن في نيّته قتل فرح ، خرجت منى ودخل نضال وهو يحملُ تقرير الطبيب الشرعي ويقرأه مدَّ هادي يده وأخذ التقرير.

هادي: شيء محير فرح لم يكن لديها هاتف نقال، كُسِرَ هاتفها منذ عام ووعدتها سالي أن تحضر لها هاتفاً جديداً بعد أن تنهي امتحانات الشهادة الثانوية وجميع المكالمات على هاتف سالي عادية ولا يوجد أي شيء غريب، بدأت أشك أن القاتل أراد قتلهما بلا سبب أو أنه زوجها كما قُلت، هل قرأت التقرير.

نضال: لا لم أنهه بعد.

بدأ هادي بالقراءة وما إن اقترب من انهاءه حتى جحظت عيناه مما رأى، أدار التقرير نحو نضال وقال بصدمة: أنظر ماذا مكتوبٌ هُنا.

كان يوسف يحتضنُ ثوب سالي وهو لايزال يرتدي نفس الثياب التي أتى بها وحقيبته لا تزال على الأرض، تذكرّ ارتباكها يوم زفافهما.

يوسف: لماذا أشعرُ بأنكِ خائفة؟ هل تخافين مني بعد كل سنوت الحب التي جمعتنا، لماذا تبكين، انظري لي أنا لا أعض.

سالي: أخاف أن يأتي يوم أصبح فيه بالنسبة لك شيئاً عادياً وأن تُهملني كقطعة أثاث قديمة، أخاف أن تلقي علي تحية الصباح بعبوس كما تلقيها على بائع الخضروات أبو مروان.

يوسف: لا تخافي لن ألقي التحية عليكِ كما ألقيها على أبو مروان بل سألقيها كما ألقيها على أم مروان.

ضربته على صدره بيديها وامتزجت دموعها بابتسامتها فمسح دموعها برفق: سأحبكِ حتى أموت.

سالي: سأحبك لبعد أن أموت.

قاطع شروده صوت رنين هاتفه الذي لا زال داخل حقيبته، توجه إلى الحقيبة وأجاب، لقد كان هادي المتصل وطلب منه الحضور إليه بأسرع وقت، لفت نظر يوسف بعد أن أنهى الرسالة وجود

رسالة من سالي، لابد بأنها رسالة قديمة قد أرسلتها له عندما كان في دير الزور وبما أنه كان في منطقة صحراوية فشبكة الاتصال ضعيفة لذا وصلت الرسالة متأخرة، فتحها وأخذ يقرأ محتواها ثم أنزل هاتفه على الأرض مصعوقاً.

وصل يوسف إلى مكتب هادي ونضال يجلسُ معهما، كان هادي متردداً فيما يريد قوله.

يوسف: لماذا أتيتم بي بهذه السرعة هل انكشف القاتل؟

نضال: إننا نكتشفه لا تقلق.

هادي: بما يخص تقرير المكالمات في هاتف زوجتك وحتى بالهاتف نفسه لم نجد وجود تهديد أو ما يشابه.

يوسف: وهل تنتظرون من القاتل أن يبلغكم بأنه قادم في طريقه لتنفيذ الجريمة؟

هادي: اهدأ، لقد صدر تقرير الطبيب الشرعي وما ورد في التقرير شيء غير متوقع.

يوسف: ما الأمر؟ ماذا ورد فيه؟

هادي: تبين في التقرير أنَّ زوجتك قد تعرضت للاغتصاب قبل الجريمة ببضعة أيام.

يوسف: ماذا تقول!! اغتصاب؟، مَن؟ كيف حدث هذا؟، كيف تحدث معها كل هذه المصائب في غيابي؟، لا أصدق، أقسم بأني سأقطّع القاتل حيّاً.

هادي: اهدأ أرجوك، ألم تكن تتحدث معها على الموبايل.

يوسف: نادراً فأنا موجود في محافظة دير الزور في منطقة لا تزال غير آمنة وأشبه بالصحراء التغطية دائماً مقطوعة كنت أستطيع الحديث معها فقط حين نتنقل في السيارة لأماكن أخرى لإحضار معدات، لقد أرسلت لي رسالة ولم أرها إلا منذ قليل أظنُّ بأنها أرسلتها منذ أن كنتُ هناك لكنها لم تصلني إلا حديثاً.

هادي: ما محتواها؟

يُعطي يوسف هاتفه النقال لهادي وهو يخفضُ رأسه من شدة الحزن.

هادي: لماذا تطلب منك الطلاق، هل تشاجرتما؟

يوسف: للمرة المئة أقول لك لا لم نفعل ربما هو أمر متعلق بما حدث لها ربما شعرت بأني عاجزٌ عن أن أكون معها وأقوم بحمايتها وهذا ما حدث بالفعل، لقد خَسِرتها للأبد.

هادي: بالنسبة لصديقتها هند وجدنا المنزل فارغ وهاتفها مغلق هل لديك معلوماتٌ أخرى ترشدنا إليها؟

يوسف: ما رأيكم أن أنجز عملكم، اتركوني وشأني.

غادر يوسف المكتب ومشى في الطرقات وهو يجرُّ قدميه بصعوبة على الأرض، كان لا زال يرتدي نفس الثياب أخذ يجوب الطرقات بلا أي وجهة كالتائه وفي عقله تدور كلماتُ سالي وذكرياته معا.

يوسف: سأسمي أنا الأولاد وأنتِ البنات

سالي: هذا ظلم أنا من ستتعب وتتألم فجميع الأسماء سأسميها بنفسي، يمكنك أن تقترح لي فقط والاسم الذي سيعجبني سأسميه.

يوسف: ماذا تريدين أن تسمي الولد الأول؟

سالي: يوسف الأول

يوسف: هههههه والثاني؟

سالي: يوسف الثاني والثالث يوسف الثالث والرابع يوسف الرابع.

يوسف: أحبك.

سالي: هل تعلم بأن الزي العسكري يليق بك ويجعلني مغرمة بك أكثر وأكثر، إنك أغلى شيء أملكه.

يوسف: وهل سأبقى أغلى شيء عند قدوم طفلنا الأول.

سالي: ستصبح ثاني أغلى شيء.

يوسف: والثالث؟

سالي: ستصبح ثالث أغلى شيء.

يوسف: إذاً لم أعد أريد أي أطفال، لا أريد أن ينافسني أحدٌ على حبك أنتِ حبيبتي وابنتي وهذا يكفيني.

عاد يوسف من ذكراه جلس في منتصف الشارع جاثياً على ركبتيه وأخذ يصرخُ بأعلى صوته.

يوسف: يا لللللللله.

****

تذكرت هند الليلة الماضية قبل الحادث، كانت تطرق باب منزل إيهاب بكل قوتها، صاحت زوجته تمارى قبل أن تفتح.

تمارى: مَن الطارق؟

هند: أنا.

ما إن فتحت تمارى الباب حتى هجمت عليها هند وأمسكتها من شعرها وشدتها إلى الأسفل حتى أسقطتها أرضاً ثم أخذت تنهال عليها بالضربات وهي تشتمها.

هند: كيف تجرئين على أن تفعلي هذا أيُها الوضيعة؟

تمارى: ماذا فعلت؟ ابتعدي عني، ابتعدي

هند: سأعيدُ تربيتك على يدي أيتها العاهرة

تمارى: اتركيني، ابتعدي، لم أفعل شيئاً

هند: لا يمكن لأحد أن يتحداني أو يواجهني أنا هند أيتها الوضعية.

تمارى: يكفي أرجوكِ يكفي، أتوسلُ إليكِ

هند: اخرسي اخرسي

تمارى: أتوسلُ إليكِ أنا حامل.

نهضت هند ووقفت بينما بقيت تمارى على الأرض تتألم، ظنت تمارى أن هند قد تركتها لكن هند بدأت تركلها على بطنها.

هند: مبارك أيها القذرة ألف مبارك ستصبحين أماً.

تمارى: ابني، اتركيني

هند: مبارك مبارح مبارك.

عادت هند من ذاكرتها بعد أن دخلت إليها إحدى الممرضات وهي تمسك باقة من الورود، قدمت الممرضة الباقة لهند وهي تبتسم لكن هند ما إن قرأت الكرت الموضوع على الباقة حتى قذفت الباقة بوجه الممرضة وقامت بإهانتها وفي النهاية هددتها بأن تشتكي عليها لإدارة المشفى بتهمة سوء المعاملة وأخذ الرشوة، خرجت الممرضة من الغرفة وهي تبكي وقامت بإلقاء باقة الورود في إحدى الحاويات.

****

كان حبيب شاباً أبكماً ينطقُ كلماته على الورق، كان يقيم في محافظة حمص ويعمل في الترجمة بعد أن تخرج من كلية الأدب الإنكليزي و له هوايات في كتابة الخواطر والرواية، كان يقيم مع شقيقته حلا التي تكبره في العمر والتي تعلمت لغة الإشارة كي تتفاهم معه، كان جالساً على الشرفة يقوم بالكتابة على حاسبه المحمول (لم تكن المشكلة في ترميم علاقة سامة ولا ببناء فتاة قد تأذت منها نفسياً وجسدياً كانت الكارثة تكمنُ في أنها تحبه، تحبه رغم كل الفوارق، رغم كل الأذى).

دخل إلى حساب على الفيس بوك اسمه زهرة الغاردينيا وكتب رسالة: قلتِ لي أنك سترسلين لي عندما تسمح الفرصة، أنا في انتظارك، لقد وعدتني أن تأتي لحفل توقيع الرواية، صرت أتوق للحفل لأراكِ أكثر من شوقي لروايتي الأولى.

أخذ يقرأ بعض الكلمات التي كانت قد كتبتها له صاحبة الحساب: لم أكن أعلمُ أني بهذا الضعف، دخلتُ إلى المنزل وأغلقت الباب بكامل قوتي، خرجت شقيقتي من المطبخ وقد أخافها صوت

اصطدام الباب لكن ما أخافها أكثر هو اندفاعي نحوها وبكائي بين يديها، ربما هي المرة الأولى التي ترى بها غزارة دموعي لطالما اعتادت بأن أكون أنا القوية وهي الضعيفة لكن في هذه المرة كنت أستمد صبري وقوتي من ضعفها ورقتها، لا أدري ما الحل، لا أدري ماذا أفعل، يوجدُ أرقٌ يقطن في أعماق روحي ولا يريحها، أشعر بأن داخلي إعصارٌ يحرمني السكينة، رغم كل الدموع التي ذرفتها أشعر بأن هناك نوعاً آخر من الدموع لم أبكه بعد تلك الدموع التي سأشعرُ بعدها بالراحة أشعرُ بأني مجرد فتاة مغفلة لا تستطيع أن تنفث عنها غبار الماضي بل تتنفسه وتجعله جزءاً منها.

****

حل المساء كان كامل وهالة مجتمعان حول العشاء، أخذت تخبره بما حدث حين جاءت إليها أم عمران، كان كامل مستعدٌ لفعل أي شيء بوسعه أن يُسعد منى، لم يفكر في الأمر أبداً (إذا كان هذا الأمر سيعيد لي بسمة ابنتي فلا يوجد لدي أيُّ مانع)

توقفت هالة عن الطعام: الحمد لله سأذهب لأطرح عليها الأمر، كنتُ أنتظر معرفة رأيك كي أبلغها بما حدث.

كانت منى جالسة على ضوء خافت تتأمل الجدران وقد أرهقها التفكير، دخلت إليها والدتها وشعّلّت الأنوار، جلست بجوارها وأخذت تداعب لها خصل شعرها: ابنتي حبيبتي، أرجوكِ فكري ملياً بما سأقوله لكِ قبل أن تجيبي، اليوم أم عمران طلبت يدك لعمران، أعلم بأن عمران يعجبك و سألت والدك وقال بأنه لن يمانع الأمر.

كان يخفق قلبها بسرعة كلما ذُكر اسمه لكنها الآن ليست كالسابق، هبَّت ريحً من الحزن على روحها: انظري إلي، أمي هل تواسي نفسك أم تواسيني، انظري لما أنا عليه.

هالة: حبيبتي شعرك يمكننا تعديله وبقايا الكدمات ستزول مع الوقت وبقليل من مساحيق التجميل لن تظهر أبداً.

منى(تكاد أن تنهار من البكاء): والأشياء الأخرى التي فعلوها بي ماذا بشأنها؟.

هالة: سيصلح الأمر طبيب بارع.

منى: أي مساحيق تجميل ستغطي روحي وأي طبيب سيصلح ما تبقى مني، إن كذبت عليه وعليك وعلى الجميع، لن أستطيع أن أكذب على نفسي، لستُ بارعة في الكذب عن نفسي يا أمي، لا شيء يستطيع أن يمحو الذي حدث من ذاكرتي سوى الموت.

هالة: لا سمح الله، لا تتحدثي هكذا، لا تحرقي قلبي.

منى(تبكي): قولي لأم عمران بأني لا أريدُ الزواج.

هالة: لكن....

منى: قولي لها كما قلتُ لكِ.

هالة: حسناً اهدأي سأفعل ما تريدين.

منى: لا تتحدثي بالأمر مرة أخرى.

هالة: حسناً لن أتحدث.

****

أبلغ أحد رجال الشرطة عدي بضرورة مراجعة زوجته هند لفرع الأمن الجنائي، ذهب إلى الفرع ليستطلع الأمر وتحدث مع المحقق هادي حول الحادث الذي تعرضت له وعدم تمكنها من المجيء أو الحديث عن الأمر بسبب ظروفها الصحية والنفسية.

عاد عدي إلى المنزل وقام بالاتصال بصبرية التي كانت تشرب عصير الفواكه وهي متكئة على سرير في المشفى بجوار سرير ابنتها هند النائمة، بعد إلقاء التحية سألها عن حال هند.

صبرية: لا لم تتحسن بعد.

عدي: عندما تصبح بصحة جيدة أخبريني، يوجد محقق من الأمن الجنائي يريد أن يذهب إليها ليطرح عليها بعض الأسئلة.

صبرية: الأمن الجنائي! ما الذي يريده؟ أي مصيبة ارتكبت هذه الحمقاء.

عدي: لم تفعل شيئاً لكن يريدون سؤالها عن سالي.

صبرية: وما علاقة سالي بالأمر.

عدي: لقد قُتِلَت

صبرية: سالي قُتِلَت ولماذا لا تشرح لي كل شيء بالتفصيل أم أنه يجب أن استمر في طرح الأسئلة كي تتحدث.

فتحت هند عينيها بعد أن سمعت ما قالته والدتها، تذكرت لقاءها الأخير بسالي في منزلها، كانت سالي تهددها: تعلمين كم يوسف عصبي، إياكِ أن يعلم يوسف بأي شيء فعندها لن أموت وحدي بل سأفضح كل شيء، سيكون مصيرك كمصيري لذا كوني حذرة.

هند: لا يوجد من يهدد هند الظاهر بأنه على الرغم من سنوات الصداقة الطويلة لا تزالين لا تعرفينني أنا لا أسمح لأحدٍ بإيذائي وإذا أقدمتِ على أي عملٍ أحمق سيكون ثمن هذا أغلى مما تتصورين.

تذكرت هند بداية أسرارهما المشتركة، كانت سالي قد زارتها في منزلها، كانتا تجلسان على الشرفة وملامح سالي غزتها التعاسة.

سالي: هذه الحياة طويلة أتمنى لو أن أحداً يكمل حياتي عني، أشعر بتماثل الأيام وانعدام طعمها.

هند: من الطبيعي أن يحدث لك هذا فأنت تتعاملين مع شخص عادي مثله كمثل أي شخص آخر على أنه محور الكون، لاحظي ما يحدث إن عمرك قد أصبح رهن وقت فراغه.

سالي: لكن الأمر خارج عن سيطرته، إني أقدرُ ظروفه لكنني أشعر بأني لست حية، أشعر بأن طاقتي قد أوشكت على النفاذ وأني بلا قيمة كأن أيامي قد تلوّنت بالأبيض والأسود.

هند: إن هذا من فعل يدك لا تنظري لي بتعجب، لطالما كنتِ مغفلة لن أقول حمارة كي لا أُنقص من احترامك، حياتكِ ملكك أنتِ من تتحكمين فيها وتلونيها بالألوان التي تريدين، عندما توقفين حياتك على قدوم شخص وتنتظرينه شهرين أو أكثر حتى يأتي بضعة أيام يذهبُ نصفها على الطريق، حين لا تفعلين شيء سوى الانتظار و إطاعة أوامره التي لقنك إياها منذ سنوات وحرمك من الكثير من النشاطات الممتعة من المؤكد أن هذا سيكون حالك، إن نهايتك هذه متوقعة.

سالي: وهل بيدي أن أجعل إجازته أطول أو أن تكون سابقة لأوانها، ليس بوسعي أن أجعله يبقى معي.

هند: انظري، انظري أتسمعين ما تقولين، إنك تتعاملين مع الحياة على أنها يوسف، يوسف فقط، وأنَّ ليس فيها جوانب أخرى تجعلك أكثر سعادة من كونك معه، لم أعد أستطيع ضبط نفسي أكثر، إنكِ حمارة.

أصبحت كلمات هند تؤثر أكثر فأكثر بسالي، قررت سالي أن تذهب سراً مع هند لإمضاء الوقت في أماكن السهر والتي كان يرفض يوسف قطعياً أن تذهب إليها، أخذت هند تُريها ثيابها كي تختار شيئاً مناسباً ترتديه، وفي النهاية وقع اختيارها على فستان أحمر اللون لم يكن أيضاً يوسف سيسمح لها بارتدائه لو رآه ومعه قفازات أنيقة تليق به، شعرت سالي أنها تنطلق نحو حياة ممتعة أكثر ولا بأس في إلهاء نفسها والاستمتاع بوقتها ريثما تحين إجازة يوسف.

****

حان موعد الدفن امتلأت المقبرة بالجيران والمُعزَّين، كان ميشيل جالساً في سيارته بجوار المقبرة يراقب ما يحدث، تذكر لقاءه الأول بسالي حين كان يسهرُ مع إيهاب في إحدى النوادي الليلية ورأى فتاة ساحرة الجمال ترتدي فستاناً أحمر اللون وشعرها الطويل منسدلٌ ليغطي ظهرها، كانت تجلس لوحدها تشرب القهوة وفي جوارها كرسي فارغ عليه حقيبة نسائية، كانت تنظرُ حولها لتستكشف المكان، البعض يرقص والبعض الآخر يشرب الخمر، التقت عينيها بعيني ميشيل فابتسم لها ورفع الكأس الذي في يده.

إيهاب: إلى من تنظر؟

ميشيل: انظر إلى ذاك الغزال الشارد.

إيهاب: هل أعجبتك؟

ميشيل: كثيراً

إيهاب: ما أعلمه بأن هذا الغزال لحمه قاسٍ وصعب المنال، إنها صديقة هند.

جاءت هند بعد أن كانت تُعدِلُ مكياجها وجلست بجوار سالي، توجه إيهاب نحوهما وقام بالسلام على هند وطبع القبلات على خديها، استغربت سالي مما يحدث، مدَّ أيهاب يده للسلام على سالي فمدت لهُ يدها بتردد.

همست هند في أذنها: يبدو أن يوسف قد جعل منك فتاة معقدة، لا تتصرفي كمريضة نفسية.

اشتغلت أغنية حماسية أمسك إيهاب بيد هند وتوجها لساحة الرقص، توجه ميشيل إلى سالي ألقى التحية ومد يده داعياً إياها للرقص، لم تكن سالي تعلم ما عليها أن تفعل، أثرت كلمات هند في نفسها وجعلتها تفكر: هل حقاً أبدو معقدة؟.

سالي: لكنني لا أجيد الرقص.

أمسك يدها: فقط دعي نفسك لي وكوني طبيعية لا تتوتري، أنا ماهرٌ في هذا.

كانت ترقص كما يفعل شعرت بإحساس جميل ينتابها، إنها تجرب شيئاً جديداً، جعلها تلتف حول نفسها ثم شدها من خصرها إليه فالتقت عيناهما بشكل مباشر وأصبحت قريبة منه جداً أبعدته عنها: يكفي هذا.

ميشيل(غمزها): لقد فعلتِها.

سالي: أنت من جعلني أفعلها.

عادا للجلوس جاءت إحدى الفتيات إلى ميشيل وبدى عليها الفرح عندما رأته، جلست بجواره وعانقته وهي تطبع قبلتين على خديه بينما أزاحت سالي نظرها عنهما وصارت تنظر للراقصين.

الفتاة: يا لها من صدفة جميلة ميشيو، اشتقت لك.

ميشيل(ساخراً): بالفعل فنحن لم نرى بعضنا سوى من يومين، سأطلب لك شيء تشربينه.

تحدثت الفتاة عن سالي: من هذه الفتاة؟ أنت أجمل منها.

انتبهت سالي لأنهما يتحدثان عنها فنظرت نحوهما فتابعت الفتاة كلامها: حقاً إنك أجمل بكثير مسكين ميشيل غير محظوظ بالفتيات.

ميشيل: كفاكِ كذباً.

كانت تسعى لاستفزاز سالي بحديثها فأكملت: لم أكذب أنت متواضع جداً، جميل ووسيم تجعل الفتيات الناقصات يركضن خلفك.

سالي: سأغادر

انزعجت سالي من كلامها ونهضت لتغادر فأمسكها ميشيل من يدها وجعلها تجلس: إنها تريد إزعاجك فهي تغار عند رؤية فتاة أجمل منها.

ملأ الغيظ الفتاة: أنا أغار! ومنها!، أنا أجمل منها بكثير.

ميشيل: بل الحقيقة أنها أجمل كائن رأيته.

الفتاة: كم تبدو غبياً وأنت تتحدث بهذا الشكل.

نهضت الفتاة للمغادرة فغمز ميشيل سالي: قلت لك إنها تغار، اضحكي، اضحكي كي تزعجيها أكثر.

أضحكت كلمات ميشيل وأسلوبه في الكلام سالي بينما أخذ هو يتأملها، أشارت هند لإيهاب بعد أن انتهيا من الرقص لينظر إليهما وقالت له: لقد عَلِقت السنارة.

طلب ميشيل منهم أن يذهبوا ليكملوا السهرة في مزرعته، كانت سالي تريد العودة للمنزل لكن هند أقنعتها بالبقاء وجعلتها تتصل بفرح وتبلغها بأنها ستنام في منزلها، جلست هند في المقعد الخلفي فاستعدت سالي لتصعد بجوارها لكن إيهاب أمسكها من زندها وطلب منها أن تجلس في الأمام وجلس هو في الخلف، شغل ميشيل أغاني على ذوق سالي، مرّت السيارة بجوار المقبرة فلاحظ ميشيل أن سالي قد قامت بقراءة الفاتحة.

ميشيل: ماذا فعلتِ؟

سالي: قرأت الفاتحة، هذه المقبرة مدفون فيها والدي.

ميشيل: أنتِ مسلمة إذاً؟ عندما رأيتك انتابني شعور بأنكِ مثلي (وأشار إلى السلسلة المعلق عليها الصليب التي يرتديها في عنقنه).

همس إيهاب لهند: إنها المرة الأولى التي أراه فيها مهتم بفتاة لهذا الحد.

هند: إذا جعلناه يتعلق بها وصارت تأتي معي دائماً سيكون كل شيء على حسابه وبإمكاننا طلب المال منه كما نريد.

اشترى ميشيل الطعام الجاهز وجميع مستلزمات السهرة، لكنه لم يأكل معهم، لم ترغب سالي في الأكل أيضاً فقد كانت قلقة لأنها المرة الأولى التي ستبقى فيها خارج المنزل، دخلت من الحديقة إلى المنزل لغسل يديها فلاحظت بعد أن انتهت وجود باب إحدى الغرف مفتوح وميشيل يجلس وبيده حقنة يقربها من ذراعه، اقتربت من الباب وهي مصدومة وتحدثت بصوت خائف: لا ، لا تفعل هذا.

تفاجأ ميشيل بوجودها وكادت الحقنة أن تسقط من يده: لماذا لم تأكلي معهما؟

سالي: تناولت القليل من الطعام لست جائعة، هل أنت مُدمن؟

ميشيل: لا، لم أصل لهذه المرحلة بعد، لكن هذا يشعرني بالراحة أكثر.

استغل إيهاب غياب ميشيل وسالي وقام بوضع حبة مخدرة في كأس العصير الخاص بسالي، سُمِع صوت الأغاني إلى الداخل.

سالي: إذا لم تصل لهذه المرحلة هيّا لنخرج.

أمسكها من يدها وقربها منه فشعرت بالخوف وابتعدت للخلف ثم لاحظت بأنه ينظر إلى خاتم الزواج الذي ظهر في يدها بعد أن خلعت القفازات.

ميشيل: متزوجة؟.

تخلل الذنب إلى ثناياها: نعم، اليوم هي المرة الأولى التي أذهب فيها إلى أماكن كهذه واختلط بأناس لا أعرفهم، أنا خائفة إن علم سيتركني وربما يقتلني.

ميشيل: حزينة لأنه سيتركك أم خائفة لأنه سيقتلك.

سالي: لا أريده أن يتركني.

ميشيل: تحبينه إذا؟ على أي حال لا تخافي لن يعلم بشيء.

جلست سالي بجواره وسيطر البكاء عليها: تعبتُ من حياتي، إني دوماً وحيدة.

لم يكن يعرف ميشيل كيف يتعامل مع الحزن والدموع، أعاد إمساك الحقنة التي كان قد وضعها جانباً: انظري إن لم تضحكي الآن سأوخز نفسي.

مسحت دموعها: أنا لست سيئة.

أمسكها من يدها ليخرجا: كفي عن هذا الهراء، هيّا لنخرج.

شعر ميشيل أنَّ شيئاً قد حزّ قلبه، لم يدري لماذا بدأ الضيق يتسللُ إلى أعماقه.

ميشيل: ما رأيك أن نرقص، الرقص يطرد الطاقة السلبية والأفكار السيئة.

سالي: بالكاد تدبرتُ أمري في النادي الليلي إني سيئة في هذا لا أريد.

ميشيل: سأعلّمك رقصة التانغو، أنا ماهر في أدائها.

كان إيهاب وهند قد تركا المقاعد ونزلا للعبث في حوض السباحة، شغّل ميشيل أغنية يمكن أداء الرقصة عليها ثم أخذ سالي إلى الجانب الآخر من الحديقة بعيداً عن حوض السباحة وبدأ يعلمها، صارا يرقصان وهما يتبادلان أطراف الحديث شعرت سالي أنه قد أصبح لديها صديق حقيقي يمكنها أن تحكي له ما تريد، توقفا عن الرقص للاستراحة وجلسا على المقاعد لشرب العصير، سقط الكأس من يد سالي وبدأت تشعر بأن دقات قلبها ستخرج من فمها، شعرت بهدوء غريب وصوت قطار يكاد أن يثقب أذنيها، شعر ميشيل بأن حالة سالي غريبة، نهضت وهي غير متوازنة وضعت يديها على اذنيها

وسقطت على الأرض، اقترب منها ميشيل، كانت تراه بأنه يوسف، أمسكت ذراعيه وجعلته يعانقها: يوسف أنا أموت بالكاد يمكنني أن أتنفس.

ميشيل: ستكونين بخير لا تخافي.

نظرت سالي إلى عينيه: قُل لي بأنك تحبني.

ميشيل: أحبك.

قام كل من هند وإيهاب بالتصفير بعد أن شاهدا العناق.

سالي: انظر إلى جسدي المُغطى بالدماء، مَن قتلني؟ (تشير إلى المسبح) انظر الى قبري كيف ينتظرني، إني أخاف الموت (تعيد عناقه) تمسك بي لا تدعهم يرشقون التراب فوقي.

بدى الخوف واضحاً على ميشيل كان يستطيع أن يشعر بدقات قلبها وارتجاف جسدها: أنا معكِ أنا هنا.

سالي(تبكي): لا تتركني، عزرائيل واقفٌ خلفك، لا تفلتني إنهُ يشدُ يدي، أبعده أرجوك أن تبعده.

شعر إيهاب وهند بأن ما يحدث غير طبيعي خرجا من حوض السباحة وتوجها نحوهما.

إيهاب: ما الأمر؟

أراد ميشيل أن ينقض على إيهاب ليفهم منه ما الذي فعله لكن سالي بقيت متشبثة به: لا تتركني له، لا تتركني.

هند: ما بها؟

ميشيل(بعصبية): احضرا لي كوباً من الماء والملح، بسسسررررعة.

سارعت هند في إحضار كوب ماء مخلوط بالملح، حاول ميشيل إبعادها عنه لكنها بقيت تبكي خائفة متشبثة به لا تريده أن يبتعد، أشار إلى إيهاب كي يساعده، اقترب إيهاب وأخذ يبعد سالي عنه بكل قوته بينما تصرخ: لا تدفنوني أنا حية، لا تدفنوني.

أخذ ميشيل يشربها من الكأس بينما ثبتها إيهاب: اشربي من هذا وستكونين بخير، هيا اشربي، اشربي.

كان قلبها ينتفض شربت قليلاً من الماء بصعوبة ثم بدأت تتقيأ، حين انتهت شعرت بأنها استعادت إدراكها، أخذت تغسلُ يديها ووجهها بمساعدة هند بينما هجم ميشيل على إيهاب ودفعه بقوة.

ميشيل: ماذا وضعت لها في العصير؟

إيهاب: رأيت بأنها تعجبك كثيراً لذا وضعت لها حبة كالتي نأخذها بالعادة، أردتها أن تسعدك وألا تكون عنيدة.

ميشيل: من أين أتيت بها أيها الغبي؟

إيهاب: من سيارتك عندما كنتُ أنزلُ الأغراض

أعاد ميشيل دفعه حتى أسقطه أرضاً: إنها ليست كالتي نتناولها عادة أيها الأحمق، لا تتصرف من تلقاء نفسك مرة أخرى وإلا ستنال عقاباً قاسياً.

إيهاب: كما تريد لكن هدء من روعك.

نهضت سالي بمساعدة هند ونظرت إلى الجميع وهي تتحدث بتعب: شعرتُ بالموت ما الذي حدث لي؟.

نظر ميشيل إلى إيهاب بحدة، فأجاب إيهاب وهو مرتبك: يبدو أنه قد تم تبديل كأس العصير الذي لك بكأسي عن طريق الخطأ، لقد وضعت في كأسي بعض المواد المخدرة.

سالي: مواد مخدرة! أنا متعبة، أريد أن أعود إلى منزل، أريد أن أنام.

ميشيل(خاطب هند): أدخليها كي ترتاح في إحدى الغرف.

سالي(خائفة): لا، لا أريدُ أن أبقى هنا.

هند: إنك بالكاد تستطيعين الوقوف، يجب أن تستجمعي قواكِ وسنغادر بعد قليل.

سالي: ابقي معي إذاً لا تتركيني.

استلقت سالي على السرير وما إن أغمضت عينيها حتى غطّت في النوم، تركتها هند وخرجت إلى الصالة كان إيهاب جالساً في الخارج وميشيل مستلقٍ على الأريكة يدخن السجائر.

ميشيل: كيف حالها الآن؟.

هند: نائمة، هي هكذا، دائماً جبانة.

ميشيل: لقد كادت أن تموت، كيف يمكنك أن تكوني بهذه اللامبالاة وهي صديقتك.

هند: أنا مؤمنة بأن لا أحد يموت عمره ناقص، ألا تريد أن تخرج؟ سندخنُ الأركيلة قبل أن نذهب.

ميشيل: إنك غريبة الأطوار، لا أظن بأن صديقتك ستقبل الخروج معك مرة أخرى بعدما حدث.

هند: وما الذي تريده حتى أساعدك فيه.

ميشيل: سؤال صعب فأنا دائماً لا أعلم ما أريد، لكن في المرة القادمة آمل ألا يكون معك صديقة تحب زوجها.

هند: هل تقصد بأن أرفض طلبها إذا أرادت رؤيتك؟ .

ميشيل: لا، لا ترفضي لقد قضيت معها أوقاتاً ممتعة.

اطلبي من إيهاب أن يوصلكما في سيارتي سأصعد إلى الطابق العلوي كي أنام.

هند: حسناً.

خرجت هند ونهض ميشيل كي يصعد للطابق العلوي، لكنه لم يستطع أن يتجاوز الغرفة الموجودة فيها سالي، دخل إلى الغرفة بهدوء، كان يعلم بأنها ستكون المرة الأخيرة التي سيراها فيها بعد ما حدث فقرر أن يودّعها، جلس بجوارها وأخذ يتأملها وهي نائمة، همس قبل أن يغادر الغرفة: إنه محظوظ.

في الماضي قبل شهرين تقريباً حين كانت منى جالسة أمام طاولتها تقوم بالدراسة وهي تضع السماعات في أذنيها تسمع الأغاني الحماسية، دخل إليها والدها كامل وجلس بجوارها، لم تنتبه منى لوجوده فقام بنزع السماعات من أذنيها بهدوء وتحدث إليها: منى ميمي أريدُ أن أتحدث إليك.

قامت منى بإطفاء تشغيل الأغاني: نعم أبي.

كامل: اسمعي يا ابنتي، أنتِ فتاة مهذبة وخجولة ومجتهدة أيضاً في دروسك، الجميع يرونك هكذا لذا لا أريد لأحد أن يؤثر على سمعتك الطيبة.

ارتبكت منى وظنت أن والدها يعلم بشأن حبها لعمران: ما سبب هذا الكلام؟ .

كامل: أنا مدير المدرسة وأعلم الكثير بشأن الطالبات اللواتي فيها سواء كانت هذه المعلومات من المعلمين أو من الطالبات أو أنا من اكتشفتها بنفسي، لقد وردني الكثير بشأن صديقتك فرح وهذه ليست المرة الأولى ولا حتى الثانية، الجميع يتحدث عنها والشكاوي بشأنها قد زادت.

منى: ماذا فعلت؟.

كامل: أشياء غير جيدة إنها تواعدُ شبان من ثانوية الفتيان التي بجوارنا وفي كل مرة يرونها مع شاب جديد، وفي النهاية هي فتاة يتيمة لا يوجد لديها والدين كي أحدثهما بشأنها وقد حدثتُ شقيقتها كي تأتي إلى المدرسة لكنها تجاهلت طلبي، أي أن الفتاة لا يوجد من يربيها وليس بوسعي فعل أكثر من ذلك، وبصراحة أمرها لا يهمني، أنتِ من تهمينني.

منى: لم أفهم.

كامل: أريدُ أن تقطعي علاقتك بها لا أريد لسمعتها السيئة أن تلوث سمعتك، لا أريد أن تصادقيها بعد الآن.

منى: لكن يا أبي، ربما كانوا يكذبون.

كامل: ولماذا سيكذبون هل كل المعلمين كاذبين! إنك مخدوعة بها، افعلي كما أقول لك، وإن كنت تخشين أن تقولي لها السبب حفاظاً على مشاعرها تهربي منها فحسب.

خرج والدها ورمت هاتفها النقال والسماعات جانباً ولم تعد ترغب بفعل أي شيء.

جاء اليوم التالي، في الصف كانت فرح تجلس بجوار منى، دخلت إحدى العاملات وقامت بالطلب من منى أن تحزم أغراضها لأنه قد تم نقلها للشعبة الثانية، نظرت فرح إليها باستغراب: ما الأمر؟.

أجابت منى بحزن: لا أدري.

في الفرصة أخذت فرح تبحث عن منى وفي النهاية وجدتها تمشي مع فتاة لا تعرفها بدى لها أنها الفتاة التي تجلس بجوارها في الشعبة الجديدة، تركت منى الفتاة وتوجهت للحديث معها.

فرح: سألت المعلمة وقال لي بأنهم نقلوكِ للموازنة بين الأعداد في كل شعبة، تحدثي إلى والدكِ كي يعيدوك وينقلوا فتاة أخرى مكانك فأنا لا أستطيع احتمال لمى لقد جعلوها تجلس بجواري.

شعرت فرح بأن منى ارتبكت ولم تعد تعرف ماذا ستقول: ما الأمر؟

منى: لقد نقلوني كي لا نبقى بجوار بعضنا ونلهو.

فرح: كان بوسعهم نقلك إلى مقعد آخر، لماذا تكذبين، ما الذي تخفينه عني؟

منى: لا أريدُ أن أجرح شعورك أنتِ صديقتي وكأختٍ لي، لا أدري ماذا أقول.

فرح: قولي كفاك تلاعباً بالكلمات.

منى: والدي لا يريد لصداقتنا أن تدوم.

فرح: لماذا؟

منى: لقد أخبره المعلمين عنك كلاماً لم يعجبه.

كانت فرح تحاول أن تخفي غضبها بينما أكملت منى: سنلتقي سراً خارج أوقات الدوام.

اقتربت فرح منها ونظرت بقوة إلى عينيها: انتهينا، لا سراً ولا علانية.

كادت منى أن تبكي لكنها تمالكت نفسها وعادت إلى الفتاة التي كانت تمشي معها.

في المرات القادمة التي كانتا فيها تلتقيان صدفة كانت منى تبتسم وتريد إلقاء التحية لكن فرح كانت تتجاهلها تماماً وتتابع طريقها.

إنه الوقت الحالي استيقظت منى، بحثت بجوارها عن هاتفها النقال لكنها لم تجده، نهضت من على الفراش وأخذت تبحثُ في أرجاء الغرفة حتى وجدته في خزانتها في الرف العلوي تحت الثياب، قامت بتشغيله فظهرت لديها في إشعارات الواتس الكثير من المكالمات الفائتة من عمران و تسجيلات صوتية.

عمران: أتوسلُ إليكِ أن تخبريني إن كنت قد أخطأت.... لقد جاءت والدتي لخطبتك لتري كم أحبك وليعلم والدك هذا أيضاً إن كان سبب غيابك هو معرفته.

فتحت على محادثة لمى فرأتها قد أرسلت صورة لتجمُّع الشرطة وسيارات الإسعاف أمام البناء الذي فيه منزل فرح وأرفقت الصورة برسالة مضمونها (لقد قُتِلَت فرح وقُتِلَت أيضاً شقيقتها سالي هذه الصورة من أمام البناء الذي تقيمان فيه).

سقط الهاتف من يدها وبدأت تبكي وتصرخُ بأعلى صوتها، نهضت من مكانها وأخذت تحطم كل شيء حولها، كانت هالة تعدُ وجبة الغذاء في المطبخ حين سمعت صوتها، سارعت إلى غُرفتها محاولةً تهدئتها حاولت أن تمسك بها لكنها لم تستطع وفي النهاية جلست منى على الأرض وهي تبكي بطريقة هستيرية: لقد قتلوا فرح يا أمي ماتت وهي غاضبةٌ مني لا أصدق ما يحدث، أشعرُ بأني أعيش في كابوس يأبى أن ينتهي.

فتحت هالة أحد الدروج وقامت بتجهيز حقنة مهدئة.

كان كامل عائداً إلى المنزل وقد جلب بعض الاحتياجات، صادف في طريقه أم عمران بعد إلقاء التحية شعر بأنها تريد أن تسأله عن موضوع الخطوبة فأجاب من تلقاء نفسه: لقد حدثنا الفتاة بشأن موضوع الخطوبة لكنها في الحقيقة رفضت ربما لأنها لا تزال صغيرة ولم تفكر بالارتباط بعد، عمران شابٌ خلوق وبالتأكيد إنه حلم للكثير من الفتيات.

أم عمران: لا بأس يا أخي في النهاية كل شيء قسمة ونصيب.

فتح كامل باب المنزل وشم رائحة حريق، دخل ليجد هالة تبكي في الصالة.

كامل: ما هذه الرائحة؟ ماذا حدث؟

هالة: لقد احترقت شطيرة البيتزا، علمت منى بأن فرح قُتِلَت وقد فقدت أعصابها ولم تهدأ حتى حقنتها بإبرة مهدئة.

كامل: يبدو أن الأيام السوداء لا تريد أن تنتهي، لقد رأيت أم عمران وأخبرتها بردنا.

هالة: ماذا قلت لها؟

كامل: ما قلته لي، الفتاة لا تريد الزواج حالياً.

هالة: سامحك الله ليتك لم تتسرع في الإجابة، لقد تسرعت، كنت أتأمل بأن توافق لاحقاً حين تهدأ وتبرد نار ألمها.

كامل: لم تخبريني بذلك، على كل حال يوجد الكثير من الشبان لتتزوج منهم نحن الآن علينا أن نصلح حال ابنتنا لا أن نزوجها.

عادت أم عمران إلى المنزل كان الانزعاج واضحاً على معالم وجهها وقد تراكمت عليها الهموم، كيف ستخبر عمران بما حدث؟، توقف عمران عن الدراسة و خرج من غرفته بعد أن سمع صوت إغلاق الباب.

عمران: أمي متى سيجيبون على طلبنا أم عليكِ أن تعاودي زيارتهم أو الاتصال بهم؟

أم عمران: لا تستعجل يا بني ما رأيك أن تأجل التفكير في الأمر حتى تخرجك؟

عمران: ما الذي جرى؟ هل يوجد ما تخفيه عني؟

أم عمران: في الحقيقة رأيت كامل في الطريق.

عمران: ماذا حدث؟

أم عمران: قال إن الفتاة لا ترغب حالياً بالارتباط لأنها لا تزال صغيرة وأنك شاب خلوق تتمناك الكثير من الفتيات

عمران: إنه يكذب بالتأكيد، كنا ننتظر أن تصبح علاقتنا رسمية بفارغ الصبر.

أم عمران: في الحقيقة لم أشعر بأنه يكذب ربما منى لم تكن صادقةً فيما كانت تقوله، أرجوك لا تجعل هذا يؤثر على دراستك لأجلي، أنا والدتك التي تحبك وتفخر بك دوماً.

عمران: لا أصدق هذا، إن لم تقل لي منى بنفسها أنها لا تريدني فأنا لن أصدق.

****

بعد الليلة التي قضتها سالي في المزرعة وعلى الرغم من أنها قد عاشت لحظات سعيدة لم تتخيل أن تعشها إلا أن ما حدث معها في النهاية زاد من خوفها وترددها، في كل مرة كانت تلتقي فيها بهند لم تكن تتوقف هند عن إقناعها في إعادة هذه التجربة، كانت سالي حريصة على ألا يتم أي حديث على هاتفها النقال أو الهاتف الأرضي بهذا الشأن خوفاً من أن يأتي يوسف بشكل مفاجئ ويعلم بما فعلت.

مضى أسبوع تقريباً على تلك الليلة، لم تكن تغيب سالي عن بال ميشيل رغم أنه التقى بالكثير من الفتيات إلا أنها قد رسخت في ذاكرته، كان يذهب كل يوم إلى النادي الليلي يبحثُ بين الحاضرات عنها، يراقب القادمات لعلها تكون إحداهن، لكنه في النهاية كان يخرج من النادي الليلي مع فتاة أخرى كي يكمل معها السهر، كان لدى هند شريحة هاتفية تقوم بتشغيلها فقط حين يكون عدي خارج المنزل، غادر عدي فقامت بتشغيلها لترى إيهاب يتصل بها تحدثت إليه فأخبرها بأن ميشيل يسأل عن سالي ويرغبُ في رؤيتها.

هند: سأحاول بكل جهدي أن أحضرها لكن عليك أن تخبر ميشيل بأنها لا تتطلع لشيء أكبر من الصداقة وإن ارتكب خطأ ما معها فلا أظن أن بوسعي إقناعها مرة أخرى.

إيهاب: حين نلتقي سأخبره، أخشى إن أخبرته الآن أن يلغي موضوع الدعوة، دعينا الآن نعيش ليلة فاخرة وليحدث ما يحدث.

جهّزت هند نفسها وتوجهت إلى منزل سالي، طرقت الباب ففتحت لها سالي وبعد إلقاء التحية.

هند: من يوجد في الداخل؟.

سالي: فرح وهي في غرفتها تقوم بالدراسة.

هند: إذاً هيئي نفسك فسهرة جميلة تنتظرنا.

سالي: قلتُ لك لن أذهب مرة أخرى، لن أذهب.

هند: لقد دعانا ميشيل و دعاكِ أيضاً.

سالي: لا أريد.

هند: كفي عن عنادك هذا سنمضي وقتاً ممتعاً، انظري إلى وجهك كيف أصبح مقيتاً من الجلوس في المنزل، ما حدث في المرة الماضي كان خطأ وأعدك أنه لن يتكرر.

سالي(مترددة): حسناً لكن ليس لدي ثياباً مناسبة.

هند: ادخلي لنرى ما لديك أو تعالي سنعود إلى منزلي وألبسك من ثيابي.

أخرجت هند سالي من المنزل وصرخت سالي قبل أن تغلق الباب: حبيبتي فروحة إني ذاهبة للسهر عند هند هل تريدين شيئاً.

أجابت فرح من غرفتها: لا أوصلي لها سلامي.

أخذت سالي نسخة المفاتيح الموجودة في الباب وأغلقته خلفها، وصلا إلى منزل هند، بدأت سالي تضع مساحيق التجميل بينما تعرض عليها هند ما يمكن أن ترتديه وفي النهاية اختارت سالي فستاناً أسوداً معه وشاحٌ حريري يمكنها أن تغطي فيه منطقة الكتفين من الخلف.

هند: بماذا تشردين هيّا ارتدي الثياب.

سالي: تمنيت في المرة الماضية أن أنزل في حوض السباحة.

هند: تريدين بدلة سباحة؟

سالي: لا لن أرتدي بدلة سباحة، أريد شيئاً غير مكشوف كثيرا كي أرتديه.

بدأت سالي تبدل ثيابها بينما حَضّرت لها هند زي رياضي كي تسبح فيه.

استقلتا سيارة أجرة حتى بداية الطريق الفرعي الذي توجد فيه المزرعة حيث كان ميشيل وإيهاب ينتظران في السيارة، توجه إيهاب إليهما وقام بمحاسبة صاحب التاكسي بعد أن أخذ المال من ميشيل، كان ميشيل يتوق لرؤية سالي مرة أخرى، بقي ينظر إليها من النافذة حتى صعدت بجواره بعد أن صعد إيهاب مع هند في الخلف.

سالي: مساء الخير.

ابتسم ميشيل: مساء النور.

همست هند لإيهاب: هل أخبرته بما قلته لك؟

إيهاب: اصبري سأخبره عندما نصل.

وصل الجميع، كانت الطاولات التي في الحديقة ممتلئة بأشهى أنواع المأكولات والحلويات، مشى إيهاب بجوار ميشيل وحدثه بما قالته له هند، لم يبدي ميشيل أي ردة فعل، هزَّ رأسه ثم قال: هيّا لنتناول العشاء، ابدأوا سأعود حالاً.

بدأ كل من إيهاب وهند يأكلان الطعام بنهم أما سالي فنهضت ودخلت خلف ميشيل، أخذت سالي تنظرُ داخل الغرف لكن ميشيل أفزعها عندما خرج من المطبخ وبيده سيجارة: عن ماذا تبحثين؟

سالي: ظننت بأنك قد دخلت لوخز نفسك.

ضحك ميشيل من أعماق قلبه بينما نظرت إليه سالي باستغراب: لا يشترط أن أوخز نفسي قبل العشاء إنه ليس دواء، يمكنني وخز نفسي متى أشاء، لقد رغبت في التدخين وعلبة السجائر كانت في المطبخ، هيّا لنخرج كي نشاركهم الطعام.

بعد انتهاء العشاء بدّلّت هند وسالي ثيابهما في الداخل وخرجتا إلى الحديقة كان إيهاب يسبح في الماء أما ميشيل كان لايزال يجلس على المقعد المجاور لحوض السباحة

اقتربت سالي منه: لِمَ أنت حزين؟ .

ميشيل: اكتشفت مؤخراً أني من بني آدم وأن بوسعي أن أحزن أيضاً.

أخذت سالي تفكر في كلماته بينما تنظرُ إلى إيهاب وهند اللذان يعبثان بدفع بعضها تحت الماء، لم تشعر إلى بأن أحدهم قد حملها من الخلف وألقى بها في الماء، مسحت وجهها من الماء ونظرت لترى ميشيل يضحك: لقد خدعتك.

ضحكت سالي وفي منتصف ضحكتها قال لها ميشيل: انتبهي.

فقد نزلت هند إلى القاع وقامت بسحب سالي من قدميها لتصبح بأكملها تحت الماء، قفز ميشيل خلفهم وتوجه إلى هند محاولاً دفعها للأسفل بينما خرج أيهاب من حوض السباحة وقفز فوق ميشيل، كان الجميع يلعب هذه اللعبة واتحد كل اثنين في فريق، اتحد كل من إيهاب وهند على إغراق سالي أخذت تهرب منهم نحو ميشيل الذي كان سريعاً في السباحة وتوجه نحوها لمنعهم من الاقتراب منها، أمسك بها للحظات والتقت عيناه بعينيها لكنهما سرعان ما سحبوها للأسفل، انتهت اللعبة بعد أن تعب الجميع وبلع كلُّ شخصٍ منهم ما يكفي من الماء.

كانت سالي تنشف شعرها بالمنشفة وتمسح وجهها من الماء، جلس ميشيل بجوارها: تبدين كالطفلة بهذه الثياب وبدون مساحيق التجميل.

سالي: مدحٌ أم ذم.

ابتسم ميشيل: لن أقول لكِ.

سالي: أين هند وإيهاب؟

ميشيل: دخلا إلى إحدى الغرف.

سالي: لماذا؟ ماذا يفعلان؟

ضحك ميشيل: هل ترغبين في إلقاء نظرة.

سالي: ما الذي تقصده، هل تقصت أن هند خائنة

ميشيل: لمَ كل هذه الصدمة؟ فليفعلا ما يريدانه، كل شخص ملكٌ لنفسه يفعل بها ما يشاء، يحبها، يعذبها، يهينها، وليس لأحدٍ أن يحاسبه.

سالي: يقول يوسف أن الشخص ملكٌ لنصفه الآخر، وأنه يحق له أن يكون له سلطة عليه.

ميشيل: وهل تعلمين ماذا يفعل الآن؟ هل هو ملكك الآن؟ هل لك سلطةٌ عليه بكل ما تريدين.

سالي: في الحقيقة لا، يبدو بأن سلطتي محدودة و سلطته مطلقة، بعد أن تخرج من الجامعة وتزوجنا كان عليه الالتحاق بالجيش لأداء الخدمة الإلزامية حينها طلبت منه أن نسافر جميعاً وأن نبيع المنزل ونغادر حتى لو كان هذا السفر بطريقة غير شرعية، لكنه رفض، أخبرني بأنه يحب هذا البلد وسيبقى فيه، قال لي أننا سنبقى على اتصال وسيزيد شوقنا وربما سننتقل لاحقاً للسكن بالقرب منه لكنه ولسوء الحظ فُرِز في منطقة نائية في محافظة صحراوية لا يوجد تغطية و حتى الانتقال للسكن بالقرب منه مستحيل، مرَّ الوقت وأنهى الخدمة الإلزامية وبدأ بالخدمة الاحتياطية وحياتي بأكملها بقيّت واقفة في مكانها.

ميشيل: أي أنه أحب البقاء هنا أكثر من حبه لكِ؟

سالي: لم يكن يظن بأن الظروف ستكون هكذا.

ميشيل: وبقيتِ تدفعين ثمن ظنونه حتى هذه اللحظة، بصراحة لو كنتِ زوجتي لما تركتك تمضين الليالي وحيدة، كنتُ سأصحبك معي حتى عندما أذهب لخيانتك.

ضحكت سالي: تبدو قاسياً في إطلاق الأحكام لكن كلامك هذا يخفف من احتقاري لنفسي، لو تزوجت وقامت زوجتك بخيانتك ماذا ستفعل؟

ميشيل: لن تخونني لأنني ضد فكرة الزواج وحين آخذ قرار كهذا فمعنى ذلك بأني أحببتها بجنون وحين أحبها بجنون سأرعاها وأفعل ما يسعدها (أكمل ضاحكاً) وإن قامت بخيانتي بعد كل هذا فلتذهب للجحيم.

سالي: من تحبها ستكون محظوظة كثيراً.

ميشيل: لماذا لم تنجبي؟، النساء حين يشعرن بالملل يقمن بالإنجاب؟

سالي: حينها لن أشعر بالملل فحسب بل سيكون الملل ممزوجاً بالتعب والألم، لن أفكر في الأمر طالما يوسف غير متواجد دائماً.

أتى كل من إيهاب وهند إليهما وهما يحملان زجاجات الخمر، سكبت هند الخمر في الكؤوس وقدمته للجميع لكن سالي رفضت، نظرت سالي حولها فرأت أن الجميع يشرب ويعيد ملأ الكأس من جديد: لا تشربوا كثيراً من فضلكم.

إيهاب: وما شأنك أنتِ؟

هند(ساخرة): إنها جبانة تخاف أن نفقد وعينا ونغدر بها، تظنُ نفسها مستهدفة دوماً.

ميشيل: لما السخرية؟ إنها محقة فهي لم تعتد على أجواء كهذه.

إيهاب: إن قال الزعيم بأنها محقة فهي محقة

ميشيل (خاطب سالي): ما رأيك أن نكمل التدريب على الرقص؟.

سالي(بحماس): موافقة.

بعد أوقات ممتعة قضوها معاً قرر ميشيل أن يقوم بإيصالهم، وقبل المغادرة طلب من سالي أن تعطيه رقم هاتفها، لم يستغرب رفضها، أوصاها قبل نزولهما من السيارة: كلميني من رقم هند إن رغبت ولا تفعلي كالمرة السابقة، دعيني أراكِ قريباً حتى لو كان هذا القريب غداً.

على الرغم من أن سالي قد قضت يوماً لا يُنسى إلا أنها في كل مرة كانت تعرض هند عليها الذهاب لم تكن تستجيب لطلبها، كانت تحاول منع نفسها من الانجرار في طريق لا يشبهها.

بعد بضعة أيام ذهبت سالي لزيارة هند، كانتا تجلسان على الشرفة وأمامها طبقٌ من الفاكهة، دخلت هند وأحضرت كيساً يوجد فيه علبة كرتون وقامت بتقديمه إلى سالي، فتحت سالي العلبة و وجدت هاتفاً حديث الطراز: ما هذا؟

هند: يا لك من محظوظة إنك تستطيعين نيل ما تريدين بدون أي جهد يُذكر، لقد أرسل لك ميشيل هذا الهاتف الذكي، يوجد بداخله شريحة اتصال ويبدو أنه قد فعل لك جميع تطبيقات التواصل الاجتماعي وأضاف نفسه كصديقٍ أيضاً.

سالي: من طلب منه أن يفعل ذلك؟، فعّل التطبيقات باسمي؟

هند: لا لقد أسماكِ خيال

سالي: خيال؟!

ضحكت هند: ربما لأنك تظهرين له ثم تختفين كالخيال.

أخذت تلقي نظرةً على الهاتف: يبدو بأنه غالي الثمن.

رنَّ الهاتف في يدها فأجابت واقتربت هند منها لتسمع ما سيقوله

سالي: ألو

ميشيل: أخيراً تمكنت من الوصول إليكِ

سالي: الآن جئت لزيارة هند وأعطتني هذا الموبايل، لماذا سميتني خيال؟

ميشيل: لأنك غير حقيقة كالخيال، لماذا لا تأتِ مع هند، إني دوماً أراها في النادي الليلي

سالي: كما قالت هند في السابق إني جبانة

ميشيل: هل تقبلين دعوتي اليوم على العشاء؟

سالي: اليوم

تهمس لها هند: لا اليوم عدي سينام في المنزل.

سالي: اليوم لا أستطيع، سنتحدث لاحقاً ونتفق.

أنهت سالي المكالمة، أمسكت هند بتفاحة وبدأت تقضمها: قومي بالاتصال بي كي أسجل رقمك سأحدثك على هذا الهاتف بشأن لقاءاتنا السرية معهم.

سالي: أفكر في إعادة الهاتف له إنه ثمين، بأي صفة يقدم لي هاتفاً كهذا، إن قبلته كهدية سيكون علي الموافقة دوماً على طلبه حين يريد رؤيتي.

هند: إنك حمقاء وغبية، بصفتك صديقته، يمكنك تشغيل الهاتف متى شئت، وإن لم ترغبي بالحديث معه قومي بإغلاقه إنك ستبقيه معك سراً أي أنه من الطبيعي أن يكون مغلقاً لفترات طويلة وليس واجباً عليك الإجابة على كل ما يرسله لك.

وصلتها رسالةٌ من ميشيل (انظري من الشرفة)

وقفت سالي وألقت نظرة ونهضت هند لتنظر أيضاً فوجدا سيارة ميشيل متوقفة جانباً وميشيل يضع هاتفه على أذنه وهو ينظر نحو الأعلى.

هند: سيفضحنا هذا المجنون.

رن هاتف سالي، اقتربت هند لتسمع ما سيقوله ميشيل.

ميشيل: أليس بوسعك النزول قليلاً؟

سالي(بغضب): ما الذي تفعله، ستفضحنا في الحي.

هند: قولي له أن ينتظرنا في بداية الشارع.

لم تفعل سالي كما طلبت منها هند فأخذت هند الهاتف منها: انتظرنا في بداية الشارع، كنا سنذهب الآن لتناول الغذاء.

تفاجأت سالي من كلام هند: ما الذي تفعلينه؟ لماذا تكذبين؟

هند: ألن تتوقفي عن الحماقة! بالتأكيد سيأخذنا الآن إلى مطعم فخم وسنتناول طعاماً أفضل من طعام المنزل.

بقيت سالي واقفة في مكانها: لن أذهب، لا يهمني الطعام ولا تلك الأماكن

أمسكتها هند من ذراعها وسحبتها نحو الباب الخارجي: لستِ أعند مني، يكفيكِ دلالاً ستذهبين معنا.

****

في ليلة الحادث بعد أن هاجمت هند تمارى بقيت هند على الأرض تنزف وتتألم، زحفت إلى هاتفها وحاولت الاتصال بإيهاب لكن رقمه كان مغلقاً، لم تتصل بأحد من أهلها فقد كانت ابنة قرية وقريتها

تبعد كثيراً عن مكان سكنها، فُتِح الباب تفاجأ إيهاب عندما رآها على الأرض وقام بمساعدتها على النهوض.

إيهاب: ما بكِ؟

تمارى: إيهاب، هند.

إيهاب: ما بها هند؟

تمارى: هاجمتني، قتلت ابني.

حملها ووضعها على السرير لأنها لم تكن تقوى على المشي.

إيهاب: تماسكي، سأذهب لإحضار الطبيب

فحصها الطبيب وقرر نقلها للمشفى وقبل أن يغادرا المنزل

إيهاب: إن سألوك في المشفى قولي لهم أنك سقطت.

تمارى: لماذا؟

إيهاب: افعلي كما قلت لك لا تناقشيني، إياكِ أن تقولي شيئاً

تمارى(تتألم): حسناً، حسناً خذني الآن.

كانت تمارى ابنة لعائلة بسيطة مجبورة على الطاعة لأن الموت لديهم أفضل من الطلاق، نفذت ما قاله إيهاب وبرر لها هذا بأنه سيخبر عدي كي يتصرف وأنه لا يريد افتعال المشاكل معه، ملأ الحزن قلبها لم تتخيل أن يتعامل مع وجع جسدها وروحها بهذا الشكل، لقد فقدت جنينها لكن هذا لم يعني له شيئاً، كانت مؤمنة بأنه لن يتغير ولن يأتي يوم تشعر فيه بأنه سيحبها ويحن عليها كأي زوج يعطف على زوجته لذا اقتنعت بأن لا أمل منه وأن أملها سيكون بأطفالها الذين ستنجبهم ليكونوا مواساة حاضرها وقوّة مستقبلها.

بعد الجريمة ببضعة أيام دخل هادي ونضال إلى غرفة هند في المشفى بعد أن سألا الطبيب وأخبرهما أن وضعها أصبح أفضل وبإمكانهما طرح بعض الأسئلة عليها.

هند: مَن أنتما؟.

هادي: المحقق هادي من الأمن الجنائي وهذا مساعدي نضال.

علمت هند بأنهما ربما سيسألانها بشأن سالي لكنها تظاهرت بعدم المعرفة: ماذا تريدون مني؟

هادي: نريد أن نسألك بشأن صديقتك سالي.

هند: ما بها سالي؟

هادي: إذاً لا زلت لا تعلمين؟ يؤسفني أن أخبرك بأن صديقتك سالي قُتلت ونريد أن تساعدينا بإيجاد القاتل.

هند: يا إلهي كيف حدث هذا؟

نضال: حدثت الجريمة في نفس اليوم الذي دخلتِ فيه للمشفى أين كنتِ قبل أن تتعرضي لحادث السير؟

هند: كنت عند تمارى، زوجة صديق زوجي إيهاب

هادي: قال السائق الذي دهسك أنكِ كنتِ تركضين وتبدين متوترة وخائفة

هند: في الحقيقة كنت أتصبب غضباً وذهبت إلى تمارى وتشاجرت معها وضربتها

نضال: لماذا؟

هند: هل ما أقوله سيبقى سراً؟

هادي: إن كان لا يفيد في التحقيق فلن نتطرق إليه

هند: أشعر بأنها تحاول التقرب من زوجي وأشك في الحقيقة بوجود علاقة بينهما.

هادي: هل كان لصديقتك سالي أعداء، هل دَخَلَت في مشكلات مع أحد؟

هند: إن سالي فتاة مسالمة وتخاف من المشكلات والتصادم مع الناس لذا لا تقترب من أي شيء يمكن أن يفتعل مشكلة وكنتُ أدعوها دوماً بالجبانة.

نضال: وشقيقتها فرح ماذا تعرفين عنها؟

هند: فرح فتاة لا تهتم سوى لدراستها، تحب الوحدة لا تحب الاختلاط كثيراً بالناس

هادي: قبل الحادث ببضعة أيام، هل لاحظتِ تغيراً في سلوك سالي

هند: لا لم نكن نلتقي، كانت تريد البقاء في المنزل لمساعدة فرح في دروسها

نضال: كيف كانت علاقتها بزوجها؟

هند: جيدة ليس فيها ما يثير الاهتمام.

خرج هادي ونضال من غرفتها، لم يعرفا منها أي معلومة من الممكن أن يستفيدا منها.

هادي: هل لاحظت ما لاحظته، لم أشعر بأنها قد تأثرت، شعرتُ بأنها تُزيف حزنها، ليست حزينة كما تحزن صديقة على صديقتها المقربة، شعرتُ بأني أسألها عن فتاة لا تعنيها.

نضال: معك حق لولا أن تقرير الطبيب الشرعي يقول بأن الحادثة تقريبا قد حدثت بعد حادث السير بعدة ساعات لقمت باتهامها

هادي: ما حالك يا رجل كلما تحدثنا إلى شخص تقوم باتهامه

ضحك نضال: إنها مستفزة، هذه الجريمة بأكملها مستفزة، بدأت أيأس منها ربما قتلا بعضهما وانتهى الأمر.

هادي: فكرة جميلة أي أن فرح قامت بإطلاق النار على رأس سالي فمشت سالي نحوها خنقتها ثم عادت للاستلقاء كي تموت على الأريكة، أو من الممكن أن سالي قد خنقت فرح فقررت فرح الانتقام وطلبت من سالي أن تستلقي ثم أطلقت النار عليها وبعد ذلك عادت للموت بالقرب من الحائط، كلامك مثير للسخرية، هذا ليس وقتاً للمزاح.

نضال: هدء من روعك سيدي، سنجد القاتل إن شاء الله.

توجها إلى منزل إيهاب، فتحت تمارى لهما الباب فوجدا آثار الكدمات على وجهها.

هادي: معك المحقق هادي من الأمن الجنائي

تمارى: المعذرة لكن لا يمكنني أن أدخلكما فزوجي ليس في المنزل

هادي: لا بأس سنتحدث هنا، أريد عن أسألك عن هند زوجة عدي

تمارى: إنها زوجة صديق زوجي

هادي: هل أتت إليك منذ ثلاثة أيام

تمارى: نعم

هادي: في أي ساعة تقريباً

تمارى: لا أذكر بالضبط لكني قمت بالاتصال بإيهاب بعد أن غادرت، ثواني سأحضر الجوال لأرى.

نضال: ما هذه الكدمات التي على وجهك ولماذا اتصلت بإيهاب بعد أن غادرت

تمارى: انزلقت قدمي وسقطت واتصلت لأطلب منه أن يأتي لمساعدتي

هادي: يمكنك إحضار الجوال

دخلت تمارى لإحضار الهاتف

نضال: إن كلام هند صحيح ولقد كذبت هذه المرأة لتغطي أمر خيانتها لزوجها

ألقى هادي نظرة على موعد المكالمة ثم سألها: ماذا تعرفين عن هند؟

تمارى: امرأة قوية وذكية

****

كان ميشيل يمضي معظم وقته في سيارته بالقرب من المقبرة في الجهة المعاكسة للباب لم يذرف أي دمعة منذ فارقت سالي الحياة كان ما في داخله يفوق البكاء، كان يوسف جالساً عند القبر، أخرج ميشيل هاتف سالي من جيبه إنه نفس الهاتف الذي أهداها إياه في الماضي كان يتأمل صورها التي قد التقطتهم عندما كان الجهاز معها، خطر في باله أن يدخل إلى المذكرة فوجد الكثير من الكلمات التي قد كتبتها فبدأ بالقراءة:

قال لي بأني كالخيال لكنني أراه كالسِحر، كلما نظرتُ إلى لون عينيه أفقد قدرتي على التركيز فأتجاهل النظر، إني مشوشة لا أعلم هل ما أشعرُ به ناجم عن حاجتي للحب فقط أم أني حقاً.....

أخبرتني هند بأنها مدعوة لحضور زفاف صديقتها وكعادتها أصرّت على ذهابي معها، قررت أن أرتدي الفستان الذي أهداني إياه مؤخراً لقد خبأته عند هند إنه فستان بالغ الجمال لونه خمري، قالت لي بأنها ستدفع لي تكاليف تسريح الشعر ووضع مساحيق التجميل لدى صالون التجميل وأن كلَّ ما علي هو الذهاب معها، لم أكن أنوي أن أدعها تدفع التكاليف إلى أن رأيت صالون التجميل الذي أخذتني إليه، إنه موجود في منطقة راقية في منتصف العاصمة دمشق ومصمم بشكل مبهر بالتأكيد لن أستطيع الدفع فإن ما معي من النقود لن يكفيني لأسرح شعري، كنت أستغرب من أين تأتي هند بالمال لشراء الفساتين والعيش كالأغنياء لكنني بعد أن اكتشفت جوانب أخرى من شخصيتها لم أكن أعلمها أظن بأني قد عرفت الجواب.

دخلنا إلى الصالون استقبلتنا العاملات، طلّبت مني إحدى العاملات أن آتي معها لمغسلة الشعر أغمضت عيني عندما بدأ الماء الدافئ يتغلل بين خصل شعري، سمعتُ صوتاً مألوفاً.

ميشيل: اتركيها سأكملُ أنا

فتحت عيني فالتقيتا بعينيه لا أدري لماذا انتفض قلبي عندما رأيته، كان يبتسم لي كما يفعل في كل مرة كأنه يقول: ثقي بي.

أخذ يغسل شعري و أخبرني بأنه مالك الصالون وأنه قليلاً ما يأتي إليه لأنه لا يحب الالتزام وقد افتتحه كهواية، كان يسرح شعري وكنت أراقبه في المرآة أسأل نفسي من أنا ومن هو لماذا التقينا في فوضى هذا الكون، أشعرُ بأنه من المعيب أن أعبر عن شعوري حتى لو بالكتابة، كما أنني لست متأكدة من هذه المشاعر لكن كلَّ ما أعرفه بأني أحاول منع نفسي عن رؤيته لأنه يعني لي، أنهى تسريح شعري واكتشفت بأنه حقاً بارع قال لي: أنا لا أقوم بالمكياج عادة لكن بما أنك سترتدين الفستان الذي اخترته لك وسرحت شعرك أرغب أن أكون مشرفاً بنفسي على إطلالتك، لأول مرة يضع لي شابٌ مساحيق التجميل شعرت بشيء من الخجل الممزوج بالضحك، لم أكن أستطيع منع نفسي عن الضحك حتى أني أفسدتُ له عمله لأكثر من مرة.

علمت بأن هذا الزفاف ليس لصديقة هند بل لصديقته وأنه أخبر هند أن تخفي الأمر كي يفاجئني، كان زفافاً أسطورياً حتى على التلفاز لم أشاهد مثله، طلّب مني الرقص على إحدى الأغنيات، لقد أصبحت بارعة برقصة التانغو شعرتُ بأني صرتُ خفيفة كالنسمة وأن روحي كطائر يجوب السماء فرحاً بحريّته لقد أنساني الرقص لوم نفسي،

إنه لا يعلم سوى بأنه صديقي الوحيد الذي أستطيع أن أثق به وأخبره عن كل ما يحزنني، لا أدري هل دبَّ البعد في نفسي الجفاء اتجاه

يوسف وهل سيعود كل شيء بمجرد رؤيته كالسابق أم أن ميشيل قد جعل مني فتاة أخرى، فتاة ذاقت لذة الحياة ولن تتمكن من العودة لحياتها الروتينية في المنزل، بعد انتهاء الحفل نشر ميشيل منشور على الفيس بوك وهي كلمات من الأغنية الجديدة لعبير نعمة " خوفي قلك شو بحسلك ونبطل أصحاب و تبرم فينا الدنيي فجأة ونصفي أغراب" شعرتُ أن الكلمات تمسني وشككت بأني المقصودة لكني تأكدت من هذا عندما طلب مني لاحقاً أن نرقص على هذه الأغنية، شعرتُ حينها أن كلماتها تظهر

في عينيه فصرت أزيح نظري عنه وأختلق أحاديثاً كي أفقد تركيزي بما يحدث، أعلم أنه فترة مؤقتة في حياتي سأتذكرها في أيامي البالية وأنها مهما طالت ستنتهي لذا كنتُ دوماً أحاولُ إيقاف نفسي وكلما شعرت بأني سأفقد السيطرة على نفسي عُدت بخطواتي إلى الوراء، إنه شاب ملول يملُّ من الأماكن، يملُّ من الفتيات، أظنّ بأن مشاعره تخدعه إنه لا يحبني إنه يحب تمّنعي واصراري على البقاء أصدقاء، وأظنُّ بأن صبره ما هو إلا رغبة في أن يتملكني كما يستطيع أن يتملك كل شيء يريده.

انتهى ميشيل من قراءة هذا الجزء من المذكرة، جهَّز حقنة وقام بوخز نفسه بها، على الرغم من رؤيته لحزن يوسف على سالي لكن الشك كان يتملكه، خرج يوسف من المقبرة لم يكن ميشيل بكامل وعيه، التف بسيارته وتوجه نحو الطريق الذي يودي إلى باب المقبرة و قام بدهسه من الخلف ثم أكمل طريقه.

****

تم نقل يوسف إلى أقرب مشفى وهو نفس المشفى الذي تم نقل هند إليه سابقاً، كانت هند لا تزال ترفض رؤية عدي، كلما اتصل بصبرية طلبت هند منها إخباره بأنها متعبة ولا تريد رؤية أحد، فرغ صبر صبرية جلست بجوار ابنتها غاضبة

صبرية: انظري يا فتاة أعلم أنك متعبة، لكن هذا لا يفسر تصرفك مع عدي ما الذي تخفينه عني، لا تثيري غضبي وإلا سأخبر شقيقك وأنتِ تعلمين من هو شقيقك وعندها سيأتي من لبنان خصيصاً ليرى ما مشكلتك، في النهاية عدي زوجك وأريدُ أن أفهم ما

الذي حدث بينك وبينه حتى تتصرفي بهذا الأسلوب، أشعرُ بأنه يوجد شيء غير طبيعي والكلام الذي قاله السائق أثار شكّي وقولك بأن كلباً شارداً ظهر أمامك، لم يقنعني، أنتِ ابنتي وأعرفك جيداً يوجد أمر تقومين بإخفائه.

هند: أمي هل تعديني بأني إن قمت بإخبارك ستتعاملين مع الأمر كما تتعامل الأم مع خطر يهدد ابنتها وستبقين الأمر سراً.

صبرية: خطر وأسرار ما هذا الكلام يا فتاة؟

هند: عديني أن تقفي بجانبي واعلمي أن معي ما يكفي من المال والذهب لأعيش مستقلة عنه وسأعطيكِ بعض الذهب فقد كنت أعمل بالتسويق الإلكتروني وآخذ ما يتيسر لي من عدي

صبرية: لم أفهم؟

هند: بسبب رغبتي في الإنجاب أجريت جميع الفحوصات اللازمة وكانت النتائج سليمة أي لا يوجد ما يمنعني من الحمل، أخبرت هذا الكلام لعدي وطلبت منه فحص نفسه لكنه رفض

صبرية: كثيرون يتزوجون ولا يستطيعون الإنجاب إلا بعد سنوات لا يشترط أن يكون عدي يعاني من مشكلة

هند: المشكلة لم تعد في الإنجاب المشكلة بأني أشعرُ أن عقدة النقص قد أصابته وأن الأمر قد تطور، أمي إنه مريضٌ نفسي لا أدري إن كان موضوع الإنجاب قد زاد من حالته، لكنه يهلوس، تتهيأ له أمور غير موجودة، تارة يستيقظ في الليل يريد أن يخنقني، تارة يشدني من يدي يريدُ أن يرمي بي للأسفل، كأن شخصية أخرى تسيطر عليه أحياناً، لقد حاولت إقناعه بالذهاب إلى الطبيب النفسي لكنه رفض وحذرني من أن أتحدث في الأمر مرة أخرى، إنه يخيفني وإن بقيت زوجته سيقتلني أو سأصاب بالجنون.

صبرية: معقول؟ لهذه الدرجة؟

هند: إنه مجنون على هيئة عاقل، أريد الطلاق

صبرية: وماذا عن شقيقك؟ هل تظنين أن بإمكانك أن تصبحي امرأة مطلقة في هذا المجتمع بهذه السهولة؟

هند: أنتِ الوحيدة التي بوسعك التحدث إليه وإقناعه، يمكنكِ التأثير عليه، لكن لا تحدثي عدي بالأمر الآن أخشى أن يؤذيني

صبرية: لا أصدق أن عدي مجنون

هند: صدقي يا أمي إنه يتخيل الأشياء ويصدقها لقد أرسل رسالة يهددني فيها في ذلك اليوم قال لي أنا قادم إلى المنزل وسأفضحك وأقتلك

صبرية: وكم معك من المال والذهب؟

هند: معي ما يكفيني كما أني سأستمر في العمل بالتسويق.

صبرية: أيتها المحتالة تعملين في السر، كنت أقول لنفسي من أين تأتي هند بهذه الثياب الجديدة والأنيقة وأن راتب زوجها لا يكفي لكل هذا.

هند: أريدك أن تقفي معي وسأعطيكِ ما معي من الذهب إنه هدية مني لك، أنا لا أحب ارتداء الذهب ولا حاجة لي به سأسافر إلى منزل شقيقتي ندى في اللاذقية كي لا

يتمكن من الوصول إلي وسأوكل محامي من أجل الطلاق إن رفض أن يطلقني بسهولة، المهم أن لا تخبريه بأي شيء من هذا الكلام وأن تمهدي لشقيقي بشأن الطلاق.

صبرية: حسناً وماذا بعد الطلاق والذهاب لمنزل ندى؟

هند: سأحاول أن أفعل كما تفعل باقي الفتيات في هذا الزمن

صبرية: ماذا تقصدين؟

هند: أتزوج بشاب مهاجر وحتى وإن لم يكن شاباً سأتزوج وسأسافر وأعدك بأني سأرسل لك كل شهر حوالة مالية، سأعيش حينها برفاهية وأمان.

صبرية: لقد حسمتِ أمرك إذاً، سأفعل كما تريدين، آمل ألا أندم.

كانت صبرية في طريقها للخروج من المشفى حين شاهدتهم يسعفون يوسف، أخذت تسألُ من حوله عما حدث، ثم تابعت طريقها، اشترت سندويش الهامبرغر وعادت إلى غرفة هند.

صبرية: خمّني من يوجدُ هنا؟

هند: لا تقولي لي عدي

صبرية: يوسف زوج المرحومة سالي لقد دهسته سيارة.

كان يوسف مصاب ببعض الرضوض والجروح لم يكن هناك إصابات بالغة، كان مستلقٍ على السرير، دخلت إليه هند بعد أن سألت عن رقم غرفته.

هند: الحمد لله على سلامتك.

يوسف: هند! أنتِ هنا؟، ذهبت إلى منزلكم لأكثر من مرة ولم أجد أحداً.

هند: لماذا؟ ما الذي كنت تريده؟

يوسف: أردت أن أسالك عن سالي، هل قالت لكِ أشياءً خاصةً بها؟

هند: أشياء مثل ماذا؟

ارتبك يوسف: ورد في تقرير الطبيب الشرعي أن سالي قد تعرضت للاغتصاب قبل الجريمة ببضعة أيام، من سيفعل بها هذا؟

هند: اغتصاب؟!! هل هذا معقول! لا لم تقل شيئاً كما أني لم أرها في آخر أيامها كانت مشغولة بمساعدة فرح في دروسها.

يوسف: تذكري جيداً .

هند: كان كل شيء طبيعياً لقد قام المحقق بالتحقيق معي وسألني الكثير من الأسئلة لا أعلم أي شيء مهم.

زاد شعور يوسف باليأس فقد ظنَّ بأن هند سترشدهُ إلى عدوِّه كي ينتقم منه، تنهد وأكمل قائلاً: لماذا أنتِ هنا؟ ماذا حدث معك؟

ضحكت هند: تعرضتُ أيضاً لحادث سير يبدو أنه الأسبوع العالمي لحوادث السير.

يوسف: كيف يمكنك الضحك والمزاح وسالي قد ماتت، إنك عديمة الإحساس.

هند(بغضب): كفاك كذباً ونفاقاً، تقتل القتيل وتمشي في جنازته.

أمسك يوسف يدها وشدَّ عليها بغضب: ماذا تقصدين؟

أفلتت يدها منه بقوة: أقصدُ ما فهمته.

صرخ يوسف: ما هذا الجنون؟ لماذا سأقتلها؟ (استدارت هند واتجهت نحو باب الغرفة) تعالي أخبريني سبب ظنك هذا لا تديري ظهرك، لماذا سأقتلها إني أحبها.

هند(بسخرية قبل أن تغلق الباب) : ومن الحب ما قتل.

****

أشعل ميشيل سيجاره واستلقى على سريره، أمسك الجوال الذي كان مع سالي وفتح صفحة أخرى من المذكرات كتبت فيها:

كان الوقت بعد صلاة العشاء تقريباً، جاء يوسف إلى المنزل بشكل مفاجئ لكنه لم يجدني كانت فرح وحيدة، كانت تعلم بأنه لا يسمح لي بالخروج من المنزل وحدي ليلاً، ارتبكت فرح عندما رأته وقالت له بأني في منزل هند وضع أمتعته وتوجه إلى منزلها، كنتُ قد استعديت أنا وهند للخروج وارتديت من ثيابها كما أفعلُ عادة، كان ميشيل لا يكف عن الاتصال فقد كان ينتظرنا في بداية الشارع، اقتربنا من الباب الخارجي حين رنَّ الهاتف الأرضي، ألقت هند نظرة لتجد رقم منزلي: إنها فرح.

اجتاحني الخوف علمتُ بأن مصيبة قد حدثت، أخبرتني بأن يوسف في طريقه إلينا وحينها لم أعد أستطيع الكلام.

هند: ماذا حدث؟

سالي: يوسف قادمٌ إلى هنا.

أعطيتها الهاتف الذي أحضره لي ميشيل، أخذتُ أبدلُ ثيابي وأخفف من مساحيق التجميل وطلبت من هند أن تبدل فستانها بثياب منزلية، طُرِق الباب ففتحت هند ألقى يوسف التحية وأبى أن يدخل، حين رأيته شعرت بمشاعري نحوه تتجدد اقتربتُ منه لأعانقه لكنه كان بارداً عبوساً واكتفى بسلامٍ جاف، اتجهنا نحول منزلنا والخصامُ واضحٌ بيننا لقد عصّيت ما كان يوصيني به وخرجت في الليل لوحدي وكنت سأعود وحدي، التقت عيني بعيني ميشيل الذي كان يتمشى وقد ملَّ من الانتظار لكني تظاهرتُ بأني لا أعرفه، كان القهر ظاهراً في عينيّ ورغبت أن أهزّ الحي بصراخي بعد

مكالمات قليلة جداً وغياب أشهر يرفضُ حتى أن يُشعرني بأنه لقاء يليق بالبعد والفراق الطويل وصلنا إلى المنزل لم أستطع أن أصمت: ما الذي تريده أن أبقى بين الجدران طوال الليل والنهار، أن يمضي نهاري كليلي، لقد جعلتني أشعرُ بأني لا شيء، إني فعلاً لا شيء، جعلت مني فتاة كئيبة مملة جبانة، إنك بحبك للتملك تريد أن تلغي وجودي، هل كان يستحق وجودي عند هند ردة الفعل هذه بعد كل الغياب، لقد قللت من قيمتي أمامها حين تصرفت بهذه الطريقة، شعرتُ بأني سخيفة.

خرج يوسف عن صمته وكان تعب السفر ظاهراً عليه: لما كلُّ هذه الحدة؟ وما هذا الكلام الذي تقولينه؟، كلُّ ما في الأمر بأني أخافُ عليك، لم تعد البلد آمنة كما كانت قبل الحرب، لقد أصبح الناس يأكلون بعضهم بسبب سوء الظروف

سالي: وإن كان وضع البلد لا يعجبك لماذا لم تدعنا نهاجر، لماذا فضلت هذه الحالة على كوننا معاً، طبعاً يجب عليك دوماً اتخاذ القرارات وتلقين الأوامر ويجب علي الطاعة حتى إن كنت غائباً يجب أن يكون كل شيء كما تريد، إنك أناني.

كنتُ أتحدث من قبل كما يتحدث يوسف لكنني حينها شعرتُ أني أتحدث كميشيل، لم يتغير يوسف إنه هكذا منذ أحببته لكنني أنا من تغيّرت لم أعد أستطيع أن أكون أنا كما

كنتُ قبل أن أتذوق طعم الحرية، رأيتُ الخيبة جاليةً في عينيه لم يعتد أن أقسو عليه بكلماتي فزاد احتقاري لنفسي، دخلّ إلى غرفتنا فتبعته لقد شعرت بالذنب: أنا آسفة.

يوسف: طوال الطريق وأنا أتخيلُ ابتسامتك حين تريني لم أتوقع أن تكوني خارج المنزل، هل تعنين ما قلته؟ هل أنتِ تعيسة معي لهذا الحد؟

سالي: تعيسةٌ لأني لستُ معك، لم أقصد كلما قلته كنتُ غاضبة فحسب

اقترب مني وعانقني (اشتقت لك لا تكرري هذ الفعل ثانية لا تخرجي بعد غياب الشمس).

كنتُ أحاول قدر الإمكان أن أكون كما كنتُ في السابق وأن أوقف عقلي عن المقارنة، على الرغم من أنه يوسف زوجي وحبي الأول لكني لم أستطع أن أتوقف عن التفكير بميشيل ولم أتوقف عن جلد ذاتي وتأنيبها، فكرت كثيراً، لا أستطيع أن أخسر يوسف لن أخاطر برؤية ميشيل أكثر في النهاية أنا من سيدفع الثمن، يوسف سينفصل عني

وهذا إن اقتصر الأمر فقط على الطلاق وميشيل سيكمل حياته كما يرغب كل يوم مع فتاة، أما أنا سأبقى وحيدة يأكلني الندم.

بعد عدة أيام ودّعتُ يوسف، تملّكني الحزن من الجديد وعلمتُ بأني سأعود لأيامي الكئيبة، أخفيت عن هند مغادرته كي لا تطلب أن نلتقِ، وأخذت أشجعُ نفسي على الصعود من الهاوية كان من الصعب عليَّ أن أتقبلَّ رمادية الحياة بعد أن رأيتُ أجمل ألوانها لكني كنت مصممة.

****

لم يعلم عمران ماذا عليه أن يفعل ولماذا رفضت منى الزواج به، لم يكن مقتنع بما قاله كامل، طلب الالتقاء بلمى والتقيا في أحد المقاهي، أصبح يعتبرها صديقته التي يشكو إليها أحزانه، بعد كثير من الكلام الذي قاله عمران قررت لمى أن تلتقي منى وتعلم منها تفاصيل ما يحدث.

لمى: سأذهب إليها وسأحدثها، لكن ماذا إن كانت حقاً ترغب في قطع العلاقة؟

عمران: لا، لا يمكن أن تتخلى عني منى بهذه السهولة، أنا أعرفها جيداً.

نفذت لمى ما وعدت به عمران، طرقت باب منزل كامل ففتحت هالة الباب، ردت هالة التحية ولم تدعو لمى إلى الدخول، وحين طلبت لمى رؤية منى أخبرتها بأنها قد سافرت لقضاء العطلة في منزل عمتها في السعودية، اتصلت لمى بعمران وأخبرته بأن منى تنوي أن تتزوج بابن عمتها وهي راضية تماماً لذا لم تعد تريد الحديث معه وأنها تنوي الاستقرار في السعودية.

كانت منى في غرفتها يتكرر في مخيلتها ما حدث في ذلك اليوم حتى أثناء نومها، كان الجو لطيفاً في تلك الليلة بدأت السماء تزخُ حبيبات المطر الناعمة فتسقط على وجهها و وجه عمران، كانت تأخذ الدروس الخصوصية في اللغة الفرنسية في منزل إحدى المعلمات وكان عمران ينتظرها في كل مرة كي يرافقها إلى بداية الحي الذي يقطنان فيه، وصلا إلى بداية الحي، تذكر عمران أن عليه أن يجلب المحاضرات من منزل صديقه ويقوم بطباعتهم، كانت أعينهم تتعانق والابتسامة تتراقص على شفاههم، تركها وعاد أدراجه بينما تابعت لوحدها نحو المنزل، لاحظت وجود سيارة قديمة الطراز تسير بالقرب منها أخذت تسرعُ بخطواتها، فُتِحَ باب السيارة الذي أصبح مجاوراً لها وقام أحدهم بشدها بقوة وإجبارها على الدخول إلى السيارة وتابعت السيارة طريقها نحو المناطق المهجورة التي غادرها سكانها بسبب الحرب ولم يعودوا لها بعد، توقفت السيارة أمام أحد الأبنية الفارغة، نزل من السيارة شابين، أحدهما كان يضع يده على فم منى ويجرها من شعرها نحو الداخل بينما تحاول الإفلات منه والدموع تسيلُ من عينيها بغزارة، وصلا إلى الداخل وأغلقا الباب، رماها الشاب الذي يمسكها إلى الشاب الآخر وأخذا يتبادلانها كما لو كانت كرة، ثم صارا يضربانها وهم يحاولان الاعتداء عليها كانت تصرخ و تقاوم بكل ما استطاعت لكنها فشلّت في منعهم عن ما أرادوه وفي النهاية أخرج أحدهُم سكيناً وقام بقص خصلٍ من شعرها ثم وضعوها في السيارة وأعادوها إلى حيث أخذوها ثم ألقى أحدهما بها خارج السيارة، نظرت منى حولها فلم تجد أحداً نهضت بصعوبة وهي تأنُّ و ترتجف بينما تدلّكُ ذراعيها بكفي يديها، توجهت إلى منزلها ففتحت هالة الباب لتسقط ابنتها بين ذراعيها فاقدةً للوعي.

****

أنهى حبيب العمل الموكل إليه، كاد الملل أن يقتله لذا قرر بأصابع حائرة أن يبدأ بكتابة روايته الثانية، فتح صفحة بيضاء على حاسبه المحمول وبدأ الكتابة:

هي فتاةٌ كالشمس تضيء وتُحرِق، يختلس الربيع شبابه من عينيها ويموت القلبُ فداءً لها، كان اسمها لوسين وكان لها من اسمها نصيب فهي جميلة بجمال القمر، كانت

لوسين فتاةً يتيمة لم تعرف معنى أن يكون للفتاة أب، أبٌ يحبها ويخاف عليها وحين يلاحقها الأذى يردُهُ عنها ويخبئها بين ذراعيه، كانت تراقبُ كيف يعاملُ الآباء بناتهم، تنظرُ إلى ما يحدث حولها وتتمنى المستحيل، تتمنى أن يصبح لها أباً.

في الصيف خلال إحدى الدورات التعليمية تعرفت إلى رند، كانت رند فتاةً مدللة، وحيدةً لوالديها، كان والدها باسم يوصلها يومياً ويعيدها بسيارته، أصبحت رند الصديقة المفضلة للوسين وأصبحت تعود إلى المنزل معها بسيارة والدها، كانت معجبةً بحبه لابنته وخوفه عليها، لم تدري أيُّ إحساس يَجُرها لقد جَرّتها الحاجة إلى شعور لم تعشه نحو ضياعها، كان باسم يلاحظ مراقبة لوسين له، كان يراها في المرآة وهي تستمر في النظر إليه ويلحظ في عينيها نظرات لم يفهمها.

أخذت لوسين تغرقُ شيئاً فشيئاً في حبه، أصبحت تزور رند في المنزل كي تراه وتقترب منها أكثر فأكثر كي تقترب منه، لم تكن تسعى لأي تطور في العلاقة فباسم يحب ابنته ويحترم زوجته، وهي من عائلة محافظة ولن تمتلك الجرأة على البوح له بمشاعرها.

في أحد الأيام كانت لوسين تنتظر رند أمام باب المعهد لكنها لم تأتي ولم يكن معها هاتف محمول كي تحادثها، بعد أن فقدت الامل في قدومها دخلت إلى الدرس، كانت تعيسة ففي كل يوم تنتظر انتهاء الدروس كي ترى باسم لكن باسم لن يأتي اليوم ولن يكون هناك معنى لسرورها.

انتهى دوام المعهد، مشت لوسين لتخط طريقها نحو المنزل حين ظهرت أمامها سيارة ليست غريبةً عنها ولم تصدق عينيها حين رأت باسم بداخلها، ابتسم لها: هيّا اصعدي.

تجمّدت في مكانها فتابع كلامه: ما بكِ هيّا سأوصلك إلى المنزل.

جلست بجواره وعيناها تضيئان كأن شعاعً من النور كان يرقص فيهما، توقف باسم في إحدى الطرقات الفارغة أمسك بيدها فانتفض قلبُها: إني أحبك.

دخلت حلا إلى حبيب وقاطعته عن الكتابة: ماذا تفعل؟.

أخذ يتحدث معها بلغة الإشارة: أحاول البدء برواية جديدة، أكتب الآن مسودة الخطوط الرئيسية في القصة.

حلا: يبدو أنها لم تتحدث بعد فقررت الذهاب بخيالك بعيداً عنها.

حبيب (بلغة الإشارة): بل قررت الذهاب إليها

حلا: هل تكتبُ عنها؟

حبيب: تقريباً

****

كان ميشيل قد نام وهو يقرأ ما كُتِب في مذكرات سالي، فتح عينيه ونهض بتعب ثم قام بإشعال سيجارة، أمسك بالهاتف المحمول وأخذ يُكمل القراءة:

مرّت بضعة أيامٍ على مغادرة يوسف كنتُ أشعرُ بملل شديد كان الهاتف الذي أهداني إياه ميشيل لا يزال مع هند، كنت على ذاك الهاتف شخصية افتراضية حُرّة الرأي والتعبير كنتُ قوية كما لم أستطع أن أكون في الواقع، كنتُ أُحِبُ أن ألهو عليه أكثر من هاتفي لقد افتقدته، كلّما اتصلت بي هند أخبرتها أن يوسف موجود في المنزل ولم أترك لها أي فرصة لتُحدثني عن أشياء أخرى.

في صباح أحد الأيام كُنتُ أشرب قهوتي وحيدة، أتأمل الجدران، أفكرُ في أحلامي الواسعة التي تقلصت حتى أصبحت يوسف فقط وبعد ذلك لم يعُد لدي أحلام، أفكرُ في الحياة التي كنتُ أتمناها وفي الحياة التي أعيشها، كنتُ في يوم من الأيام فتاةً مرحة تظُّن بأن الحياة مغامرة ممتعة، أماكن مختلفة وأصدقاء كُثُر، كُنتُ أحبُ السفر، كنتُ أتمنى أن يُحبني شخصٌ لا يحكمه كبرياؤه أن يكون مُجرداً أمامي من حزمه، أن يُعّري مشاعره عند وجودي، لكن ماذا أكون الآن، أنا لست سوى فتاة عاديّة مملة، لقد جعل مني يوسف فتاةً بلا معنى لقد ألغى وجودي، كان الفراغ الذي أعيشه يجعلني أفكر بكل شيء وبكل التفاصيل، طُرِق الباب ونهضت لفتحه، إنها هند، دخلّت غاضبة.

هند: لقد رأيتُ فرح وأخبرتني بأن يوسف قد سافر منذ مدة، لماذا تكذبين؟.

سالي: لأني لا أريدُ أن أتورط من جديد، لا أريدُ أن أخطئ أكثر.

أعطتها هند الهاتف الذي أهداه إياها ميشيل: لقد اتصل ميشيل كثيراً تحدثي إليه وأخبريه بما قررتِ، إنهُ قلقٌ عليكِ.

سالي: أخبريهِ أنتِ.

كانت هند مستاءة: ماذا سأخبره؟ تارةً تكونين صديقته المقربة وتارة لا تريدين، إنك فتاة حمقاء، لقد وجدتِ صديقاً حقيقياً يخاف عليكِ، يحافظ على أسرارك وتخرجين معه للتسلية حين تريدين، إنك تتحكمين بكل شيء، وعلى الرغم من هذا أراكِ دوماً قلقة وخائفة، إنك فتاة معقدة.

أمسكتُ الجوال، أخذتُ نَفَسَاً عميقاً وقررتُ الاتصال، أجاب ميشيل فوراً، سمعتُ بجواره صوت فتاة وعلمتُ بأنه مع إحدى الفتيات كما اعتاد دوماً، انهيت الاتصال دون أن أتكلم.

هند: ما الأمر؟

سالي: سمعتُ صوت فتاة بقربه، كانت تتحدث وتضحك معه بصوت مرتفع، شعرتُ بأن الوقت غير مناسب للحديث في هذا الأمر، سأرسل لهُ رسالة بما أريد أن أقوله.

كنتُ مرتبكة لقد هزَّ سماع صوته شيئاً في أعماقي لهذا أنهيت الاتصال شعرتُ بالضعف وبأني لن أستطيع أن أنهي علاقتي به، أعاد ميشيل الاتصال وقمت بقطعه دون أن أجيب.

هند: أجيبِ لماذا قطعتِ الاتصال؟

سالي: سأرسل رسالة.

أخذت هند مني الهاتف المحمول: كفاكِ حماقة لن ترسلي شيئاً، أيُعجبكِ أن تهرمي بين هذه الجدران ألم تملي من تأملّها سنعود كسابق عهدنا سنخرج ونستمتع بوقتنا.

كنتُ في حيرة من أمري كان من الصعب عليَّ أن أعود لأمضي معظم وقتي وحيدة، عاد ميشيل للاتصال مجدداً فأجابت هند وأخبرته بأننا سنلتقي في المساء، طلب الحديث معي، أمسكتُ الهاتف بتردد

سالي: ألو

ميشيل: كيف حالك؟ هل أنتِ بخير؟

سالي: نعم بخير

ميشيل: يا إلهي ما أجمل هذا الصوت، كم اشتقت له.

سالي: ماذا!!

ميشيل: إني أتحدث إلى الفتاة التي معي

سالي: امممممم

ميشيل: كنتُ أستعدُ للذهاب بعد قليل إلى البحر سأسافر إلى محافظة طرطوس، ما رأيكِ أن تأتي معي

سالي: لا لا أست.....

كانت هند تستمع إلى ما يقوله ميشيل، أخذت الهاتف منها قبل أن تُنهي كلامها: قلتُ لك إنها جبانة، سنستعد حالاً ونأتي إليك.

سالي(تهمس): لا أريد.

ميشيل: لكن إيهاب لديه عمل ولا أظنُّ بأنه سيأتي.

هند: إذاً سآتي أنا معكما فسالي يستحيل أن تأتي بدوني.

ميشيل: حسناً.

كنتُ أشعرُ بأن هند كانت تسعى دوماً لاستغلال ميشيل بكل الطرق الممكنة أو بالأصح تسعى لاستغلال أي رجلٍ ثري والاستفادة منه بكل الوسائل.

تركتُ لفرح رسالة ورقية بأني ذهبتُ في رحلة مع هند ومجموعة سياحية ولن أعود حتى صباح اليوم التالي، التقينا مع ميشيل حيث اعتاد أن ينتظرنا بعيداً عن نظر سكان الحي، كان يطيل النظر إلي كنتُ أخشى مما تقصده تلك العيون الساحرة، جلستُ بجواره بينما جلست هند في الخلف، شغلّ أغنية لتامر حسني وكان ينظر لي عبر المرآة كل قليل كأنه يقول لي بأني أقصدك، كانت

كلماتها تقول (يا عيون أنا بيها بقيت مجنون .. ولا كانت ولا هتكون و كأنك جاية عشاني مـ الجنة، ياعيون مالية لي الدنيا ورود .. و معاها بقيت موجود، تستاهل فعلا قلبي اللي استنى، قابلت و عيني شافوا كتير ولا اشتاقوا،و قولت لقلبي مهما يغيب ..

اكيد هيجيلي أحلى نصيب، فضلت لوحدي و استنيت .. عنيكي يشوفوا عيني ياريت، أهو اتقابلوا)

ميشيل: لقد افتقدتك.

أردتُ تجاهل ما قاله: أين الفتاة التي كانت معك ألن تأتي معنا.

اقترب مني وهمس في أذني : وجودكِ يُلغي وجود الجميع، لا حاجة لي بأحد وأنتِ معي

كان جريئاً أكثر مما مضى، لاحظت وجود آثار وخزات على ذراعه: هل عُدت لتلك الحُقن اللعينة؟

ميشيل: لم تكوني معي كي تمنعيني، كُنتِ سعيدة حيثُ أنتِ وكان علي أن أنسى

شعرتُ بالحزن: تنسى ماذا؟ إنك تُدمرُ نفسك.

ميشيل: إنَّ قلبي هو من يدمرني

شعرتُ بأني خائفةٌ عليه نظرتُ عبر النافذة وأخذت أفكر، ماذا لو التقيت به قبل يوسف، ماذا لو كان هو نصفي الآخر وقد خاننا القدر و وقف في وجه لقائنا، ماذا لو لم يكن بيننا اختلاف ديني، لقد خدعتنا أسطورة الحب الأول، الحب للذي نستطيع أن نكون معه أحراراً، للذي يكسِرُ أغلال وحدِتنا ويضيء ما انطفأ منا، الحب لمن يجعلنا نشرق كالشمس وننيرُ كالقمر، لِمن يجعلنا نتوهج، شعرتُ برغبةٍ في البكاء تمنّيتُ لو أني أستطيع أن أعود إلى ذاتي القديمة قبل أن ألتقي بيوسف وأن ألتقي بميشيل وأنا مجردةٌ من كل الماضي الذي يربطني بيوسف، هززّتُ رأسي لأمسح هذه الأفكار الشيطانية من عقلي وأغمضت عيني لأحاول النوم.

توقفت السيارة و ذهبت هند إلى إحدى الاستراحات التي على الطريق لإحضار بعض الأطعمة.

ميشيل: لما أنتِ حزينة؟

سالي: لا أستطيع أن أوقف عقلي عن التفكير، لقد مللتُ من نفسي، حتى أني لم أعد أستطيع النوم.

ميشيل: بماذا تفكرين؟ هل حدث معك مشكلة ما؟

سالي: لا، أتمنى لو أني أستطيع أن أكون مثلكما أنت وهند، أضحك دوماً لا أحمل همَّ شيء ولا أفكر بشيء.

ميشيل: ومن قال لك بأني لا أفكر، إني أفكر كثيراً خصوصاً عندما لا تكونين معي (يشير لها إلى ذراعه) أنظري ماذا أفعل كي أتوقف عن التفكير.

أخرج حقنةً و وجهها نحوي وهو يخيفني كأنه يريد وخزي (سترتاحين إلى الأبد ووووو) كان يقربها مني وهو يضحك بينما كنت أبعده وأفلت ذراعي من يده كلما تمكن مني، لم أستطع إلا أن أضحك كان يجدُ دوماً طريقةً ليجعلني سعيدة.

حين وصلنا بقيّت هند في الشاليه بينما أخذني ميشيل لنتمشى على الشاطئ إنها المرة الأولى التي أرى فيها البحر، شعرتُ بأنه يشبهني، كانت أمواجه تتحدث إليَّ وكأنها تقول لي (لا تحزني سيكون كل شيء بخير)، استمريتُ في النظر إليه والاستماع إلى ألحانه، كنتُ شاردة الذهن حين أمسك ميشيل يدي وقام بعناقي، شعرتُ بدقات قلبه تتحدثُ إلى دقات قلبي لكني سرعان ما ابتعدت: ماذا تفعل؟

ميشيل: أريدُكِ أن تبقي معي، لا تتركيني.

سالي: ما الذي تقوله؟

ميشيل: أحبك .

كنتُ خائفة: هل جُننت ما هذا الكلام ؟ تعلم بأني لا أستطيع.

ميشيل: أريدك أن تصبحي زوجتي.

سالي: غير ممكن.

ميشيل: سأفعل أي شيء ليكون هذا مُمكناً.

سالي: اتركني، اتركني لوحدي، أريدُ أن أبقى وحيدة.

جلستُ على الرمال وبدأت بالبكاء لقد وضعني في مواجهة مباشرة مع ما كان يخيفني، ظهر لي ما كنتُ أهرب منه دوماً أمامي، اقترب مني فصرخت: قلتُ لك اتركني وحيدة.

لم أذكُر متى فارَقتُنِي لكن صرامة هذه الحقيقة أوجعتني، لا لم أعُد أنا، لقد غادرتُ نفسي بلا موعد فلم أودعني ولم أحظى بتذكار مني يدلني إلى نفسي، فصرت أحاول

أن أعود إليّ لكن لم أجِدنِي، كان البحر بُغريني، كان يناديني، كم رغبت في أن أرتمي بين أحضانه وأن تغمرني مياهه وتغسل روحي وتطهرها.

اتصلت على الهاتف الأرضي في المنزل وقمت بالاطمئنان على فرح وأخبرتها أني سأعود غدا، طلبت منها إن اتصل يوسف على الهاتف الأرضي أن لا تجيب فقد اتصل بي على الجوال ولم أرغب في الرد عليه كنتُ يائسة لا أعلم ماذا سأفعل، كم سيشعر يوسف بخيبة الظن حين يعلم بأن الفتاة التي كانت ببراءة الأطفال حين عرفها في المرحلة الثانوية قد أصبحت مشروع امرأة خائنة، لكني بالتأكيد لن أمتلك الجرأة لإخباره فهو عصبي الطباع وكنتُ أخافُ منه، كنتُ أفضل الهروب على المواجهة، ما هذا؟ ما الذي أفكر فيه وأيُّ نهاية سوداء تنتظرني إن خاطرتُ بزواجي وتخلّى عني ميشيل في النهاية، سينتهي فضوله حين يمتلكني وسأصبح كأي فتاة أخرى، أيُّ ندمٍ سأندمه حين يتركني لأجل فتاة غيري، حلَّ المساء ولم تتوقف الأفكار عن أكل رأسي، أخيراً قررتُ أن أعود للشاليه وأن أحاول تجاهل كلَّ ما قاله لي.

في كلِّ مرة كانت صديقتي القديمة هند تكشف لي بأنها أسوأ مما أظن، لم يشعروا بي حين دخلتُ إلى الشاليه كان ميشيل ثملاً وهند تحاول التقرب منه كان يبعدها عنه وهو يضحك: ابتعدي عني، أنتِ الفتاة الوحيدة التي لا أتمناها.

ضحكت هند: كم أنت وضيع لكنك تعجبني.

ميشيل: لا يوجد بيننا كيمياء اشعرُ بأنكِ رجل هههه

نهضت هند من جوار ميشيل عندما لاحظت وجودي بينما بقي ميشيل جالساً في مكانه دون أن ينطق بكلمة

هند: ألهذا الدرجة؟ أعجبك البحر لقد أصبحتِ بلون رمال الشاطئ

لم أجبها فتحدثت إلى ميشيل: ما بها؟

ميشيل: جبانة

قمتُ بالاستحمام ثم دخلت للاستراحة في إحدى الغرف، كان ميشيل يشرب القهوة على الشرفة، تبعني إلى الغرفة

ميشيل: ماذا قررتِ؟

سالي: هذا الأمر كان محتوماً منذ البداية لا يوجد فيه اختيار أو قرار لكنك تجاهلت هذا.

ميشيل: لم أتجاهل لكني أحببتك دون قصدٍ مني أو رغبة.

سالي: إنك تريد تدمير حياتي.

ميشيل: بل أنتِ من دمرتني، لم أعرف قبلك الهموم والحزن لقد جعلتِ مني شخصاً لا أعرفه.

سالي: لا أريد أن نكون أي شيء بعد الآن، سأتركك لتعود كما كنت وأعود أنا كما كنت.

ميشيل(بسخرية): ليت الأمر كان بهذه السهولة.

غادر الغرفة وبقيتُ وحيدةً أتمزق من الداخل، كنتُ أكذبُ على نفسي لن أستطيع أن أعود كما كنت، لم أستطع تخيل أن ميشيل سيصبح من الماضي، كان ظاهري هادئاً كركود الماء وداخلي يثور كالإعصار.

أردنا المغادرة لم تكن هند تعلم بما حدث ولم أُرد أن أخبرها كي لا تضغط علي أكثر، ظننتُ أنه لن يتحدث معي مرة أخرى لكن ما إن وصلنا حتى طلب مني أن أجلس بجواره كالمعتاد، شعرتُ بأنه لا ينوي قطع العلاقة، كان يحاول أن يكون طبيعياً لكن حزناً ساكناً كان يقطنُ عينيه.

وصلنا إلى المنزلِ ونمتُ نوماً عميقاً، استيقظتُ في المساء أخرجت الهاتف الذي أحضره لي ميشيل من حيث خبأته فوجدتُ رسالةً منه (أنا متعبٌ كثيراً أشعرُ بأني سأموت يبدو أني قد أخذتُ جرعةً زائدة، أُريدُكِ بجانبي الآن، أرجوكِ)، حاولت الاتصال به لكنه لم يُجب، اتصلت بهند لكن رقمها السري كان مُغلقاً فعلمتُ أن إيهاب في المنزل، لم أدري من أين أتيت بالقوة التي دفعتني للذهاب إليه، وجدتُ باب الحديقة مفتوحاً، دخلت وكان الباب الداخلي أيضاً مفتوح، دخلتُ و وجدت ميشيل في غرفته غائباً عن الوعي اقتربت منه بلهفة وحاولتُ أن أجعله يستيقظ تناولت زجاجة الماء

لأرش وجهه بالماء، شعرتُ بأن أحدهم قد أمسك بي من الخلف وقام بدفعي ليسقطني على الأرض وسقطت القارورة من يدي وتحطمت، رفعت نظري فوجدتُ إيهاب يقتربُ مني كذئبٍ مفترس، كنتُ أدفعه لأبعده عني بكل ما استطعتُ من قوة للحظات شعرتُ بأني قد فقدتُ القدرة على المقاومة، لاحظتُ بأني صرتُ قريبةً من إحدى قطع الزجاج الكبيرة، مددتُ يدي وأمسكتُ بها ثم غرستها بالقرب من ذراعه من الخلف، وضع يده على الجرح وهو يتألم دفعته و أخذت أركض بأقصى سرعة ممكنة خوفاً من أن يُمسك بي مرةً أخرى، استنتجتُ بأن إيهاب قام بوضع المنوم لميشيل ليتمكن

من الإيقاع بي، شعرتُ بالخيبة يبدو أني قد تعاملتُ مع أدنى مستويات البشر، فتحت لي فرح الباب عندما وصلت.

فرح: ما بكِ لماذا وجهك شاحبٌ هكذا؟

سالي: ظهرت سيارة بشكل مفاجئ أمامي وكادت أن تدهسني

فرح: امممم على الرغم من أني لم أعد أصدقكِ لكن لا بأس

سالي: لماذا لم تعودي تصدقيني؟

فرح: لأني شقيقتك وأعرفك جيداً

تركتني فرح ودخلت إلى غرفتها كانت تُحبُ العزلة، لم تكن فتاة فضولية ولم تكن كثيرة الأسئلة لكن كلماتها القليلة جعلتني أشك بأنها تعرف أني غارقة في الخطأ وتتظاهر بالجهل.

دخلتُ إلى غرفتي ولم أستطع التوقف عن البكاء، أعترف بأني كنت أفكر جديّاً بكلام ميشيل لكن بعد الآن سأنتزع هذه الأفكار من عقلي فأنا أفضل أن أعود لوضعي السابق على أن أغرق في مستنقع القذارة هذا، شعرتُ بأن الأمان أهم من الحب، كانت رسائل إيهاب تصلني الواحدة تلو الأخرى وكانت كلُّها رسائل تهديد يحذرني فيها من أن أخبر ميشيل أو هند بما فعل، مرّت بضعة أيام لم يتحدث معي ميشيل ويبدو بأنه لم يعد يتحدث مع إيهاب أيضاً لذا كان الشك يكبر في قلب إيهاب ظناً منه بأني قد أخبرته ولم تتوقف رسائل التهديد فقمت بإغلاق هاتفي وصرتُ أتهرب من رؤية هند والإجابة على اتصالاتها، لقد أصبحتُ آخذ المهدئات كي أتمكن من النوم، يبدو أني قد بدأت بدفع ثمن أخطائي.

كانت هذه آخر مذكرة قد كتبتها سالي على هذا الهاتف، نظر ميشيل إلى تاريخ المذكرة فوجد بأنها قد كُتِبَت قبل الجريمة بفترة قصيرة.

فُتِحَ باب المنزل ودخلت شقيقة ميشيل كريستين وهي تجرُ حقيبة السفر كانت تكبره في السن وتشبهه بالجمال، كان خارجاً من غرفته حين رآها، تركت حقيبتها وتوجهت نحوه بلهفة: ميشيل أخي هل أنت بخير؟ لماذا لا تجيب على اتصالاتنا والدي قلقان عليك وجئت خصيصاً للاطمئنان إلى حالك.

ميشيل: بخير

كريستين: تبدو متعباً هل أنت مريض؟ هل حدث معك مكروه؟

ميشيل: سأذهب الآن لدي أمرٌ مهم عليّ القيام به، سنتحدث عندما أعود.

كان ميشيل قد أصبح مدمنّاً، كان تعيساً لم تعتد كريستين أن تراه على هذا الحال، رفض البقاء معها، تركها واقفة في الصالة وتابع طريقه.

****

جلس حبيب على الشرفة وهو يشرب النسكافيه فتح حاسبه المحمول ليكمل كتابة الرواية حيث توقف:

لم تُصدق لوسين ما قاله لها شعرّت بأنها تعيش في حلمٍ لا ترغب في الاستيقاظ منه، كان لا يزال ممسكاً بيدها: ماذا قُلت؟

باسم: أحبك

لوسين: حقاً؟

باسم: ولماذا أنتِ مدهوشة هكذا، مَن يرى فتاةً مثلكِ كيف يستطيعُ أن لا يُحبها، إني أنتهزُ كل فرصةٍ لأراكِ، أخاف عليكِ كابنتي وأحبك أكثر من ما أحب زوجتي.

لوسين: أنا أيضاً.

باسم: أنتِ ماذا؟

لوسين: ظننتُ بأني سأمضي عمري وأنا أحبك دون أن تلاحظني أو تبادلني الشعور، ظننتُ بأني سأستمر في الاحتراق دون أن تنتبه لكن يبدو بأن الله قد زرع في قلبك ما زرعه في قلبي.

باسم: هل تقبلين دعوتي على الغذاء؟

لوسين: لا أستطيع أن أتأخر اليوم.

باسم: أعطني رقم هاتفكِ المحمول؟

لوسين: لقد تعطّل ولا أظنُّ أن بوسعي أن أشتري واحداً جديداً قبل عام.

باسم: عام! إنه وقتٌ كثير.

لوسين: شقيقتي ترفض أن تحضر لي هاتفاً الآن لقد حصلت على درجات متدنية في العام الماضي ولن أحصل على واحدٍ جديد حتى تنتهي الامتحانات النهائية في العالم القادم.

تذكرّت لوسين خيبتها السابقة، لقد كانت تدرس في مدرسة مختلطة، كانت تحبُ أحد الشبان فيها واسمه وسيم كانا يمضيا أوقات الاستراحة معاً ويتحدثان في المنزل لأوقاتٍ طويلة، كانت تثق به ولم تستطع أن تكشف خبث نواياه، استمر في إصراره على أن ترسل له صوراً بثياب مكشوفة ثم علمت بأنه يرسل الصور لأصدقائه، في نهاية العام الدراسي الماضي بدأ يبتزها وقال لها بأنه

سيفضحها أمام عائلتها إن لم تنفذ كل ما يطلبه منها، لم تخضع لوسين لتهديده وفضلّت المواجهة على الاستسلام، كانت تعيشُ في المنزل مع شقيقتها هيام و زوجها محمد بعد وفاة والديها، خرجت من غرفتها بعد أن حطمت هاتفها وشريحة الاتصال الخاصة

بها وتحدثت بجرأة: لقد أحببتُ أحد الشبان في المدرسة وقد أرسلت له صوراً فاضحة وهو الآن يهددني بها.

ظهرت الصدمة على وجه هيام وبدى الغضب جليّاً على وجه محمد نهض من مكانه وأخذ يصرخ ويوبخها بينما تحاول هيام تهدئته، كانت كلماته قاسية وموقفها كان ضعيفاً خطأها فبقيت صامتة، استمرت بحبس دموعها ثم دخلّت إلى غرفتها وأقفلت خلفها الباب ثم انفجرت بالبكاء.

هيام: اهدأ، كلّنا نخطئ، لا تقسو عليها أكثر.

محمد: إنها فضيحة كيف يمكنها أن تكون بهذا الغباء، شقيقتك بلهاء، ادخلي إليها الآن، أحضري لي عنوان هذا الشاب القذر سأذهب إليه لأعيد تربيته من جديد، لو كانت شقيقتي من فعلت هذا لحطمّتُ رأسها لأعدتُ تربيتها أيضاً لكني لا أريدُ أن أحزنك.

ذهب محمد إلى منزل الشاب وما إن فتح له الباب حتى انهال عليه بالضربات ثم أخذ هاتفه المحمول وحطمه، وبعد أن هدأت دماؤه الثائرة قليلاً أدخله إلى المنزل ودخل خلفه مهدداً والديه بإبلاغ الشرطة إن اقترب من لوسين أو أزعجها.

باسم: سمعتُ بأنكِ ستنتقلين من المدرسة التي كنتِ فيها، بماذا تفكرين؟

عادت لوسين من شرودها: نعم سأنتقل، علمتُ بأنك ستكون مديري وهذا الأمر يسعدني.

كانت لوسين دائماً فتاة قوية إلا حين تُحب فقد كانت تفقدُ السيطرة على نفسها، بعد عدة لقاءات أعطاها باسم هاتفاً قديماً كان يستعمله وشريحةً هاتفية قديمة كي تتواصل معه، مع الوقت أصبحت تلتقي به سراً تارةً في منزلهِ غير المسكون وتارةً في منزلها حين تكون وحيدة، كان في كلِّ مرة يقترب منها أكثر وفي النهاية أقنعها بأنه سيتزوجها وطلب منها أن تعتبر نفسها زوجتُه، بعد أن ضحّت بأغلى ما تملك كي ترضيه أصبحت تُصِرُ على موضوع الزواج وأصبح إصرارها يُزعجه فبدأ يبتعدُ عنها شيئاً فشيئاً وفي النهاية كان صريحاً معها: لن يوافق أحدٌ على علاقتنا لا تزالين صغيرة، انتظري حتى تكبري وسأتقدم لخطبتك.

توقف حبيب عن الكتابة، شعرَ بأنه يكرهه ما يكتبه وقام بحذف كل ما كتب، فكر في نفسه: كيف أنشر أسرار فتاة قد وثقت بي، كيف سأفضحها على شكل رواية أو قصة، حتى لو غيّرت الأسماء، حين تقرأها ستحزن.

كانت فرح صاحبة حساب زهرة الغارديني التي كان يتحدثُ إليها في السابق، كانت تبوح له بكل ما يجولُ في بالها، إنه غريبٌ سيحملُ أسرارها ويمضي لكن هذا الغريب أصبح مع الوقت أقرب إليها من نفسها، لم تقبل أن تُرسل له صورتها وبعد إصرار منه جعلته يراها لثوانٍ معدودة في مكالمة فيديو وسرعان ما أنهت المكالمة، لم يكن يعلمُ بأنها قُتِلَت، كان ينتظر حلول موعد توقيع روايته الأولى كي يراها فقد وعدته بأنها ستسافر إلى محافظة حمص لبضع ساعات لتحضُر الحفل، كان قلقاً عليها تذكر آخر مكالمة هاتفية تحدثت فيها إليه، كانت تبكي من أعماق قلبها: أعلم بأنك لا تحب المكالمات الهاتفية لكني لستُ قادرةً على الكتابة، أريدُ أن أبوح لك كي لا يقتلني الكلام، لا أستطيع أن أتجاوز الأمر، لا أستطيع أن أتصرف كأن شيئاً لم يكن، الآن يريدنا أن نتحدث برسمية، كيف من الممكن أن يحدث هذا بعد كل ما جرى بيننا كيف بوسعه أن يكذب على نفسه ويتظاهر بأني لا أعني له شيء، ربما إني حقاً لا أعني له شيء، لقد انتهت صلاحيتي، كم كنتُ مخدوعة، كنتُ على استعداد لأواجه كل الكون لو وافق على طلبي للزوج، حتى لو اضطررت لأن أتزوجه رغماً عن

الجميع، هو لم يخسر شيئاً أنا من خسرت وسأبقى خاسرة لآخر عمري، حين أصريت على موضوع الزواج وقلت له بأني سأفضح كل شيء إن لم يتزوجني رمى لي بالمال وكأني، كأني.....، قال لي أصلحي ما فعلناه وانسي الأمر، كيف سأنسى بأنه خدعني، إن نسي جسدي كيف لقلبي أن ينسى، لقد قررت، لن أكون ضحية ضعيفة بعد الآن، لن أكون لقمةً سائغة.

انتهت المكالمة وأرسل حبيب لها رسالة: لا تجعلي الخطأ الذي ارتكبته يجعلك ترتكبين أخطاء أكبر وأكبر.

تلت رسالته الكثير من الرسائل والمناقشات وأخبرته في النهاية بأنها ستعيد الهاتف لصاحبه كي لا يذكرها به شيء ووعدته أنها ستأتي لحفل التوقيع كي تراه.

****

خرج إيهاب من المعمل بعد أن انتهى دوره في الحراسة، كان المعمل في منطقة غير مسكونة، مشى إيهاب ليصل إلى الطريق العام فتوقفت بجواره سيارة ميشيل.

ابتسم إيهاب: ميشيل! ما الذي أتى بك إلا هنا؟ لا بدّ بأنه الشوق.

نزل ميشيل من السيارة وانهال عليه بالضرب حتى أوقعه أرضاً: لقد قتلتها، قتلت سالي، أيها الوضيع.

كان إيهاب يحاول الدفاع عن نفسه: ابتعد عني أيها المدمن، أظن أنك من قتلتها بينما كنت تحت تأثير الممنوعات.

استمر ميشيل بضربه: أغلق فمك أيها السافل، لقد حاولت الاعتداء عليها ثم ظننّت بأنها قد أخبرتني فقتلتها إيها المُقرف

إيهاب: كفاك جنوناً، أتركني، لماذا سأقتل شقيقتها أيضاً؟

ميشيل: اعترضت طريقك فقتلتها، لقد هددتّها لقد دوّنت كل شيء في مذكراتها (يجره نحو السيارة) سأسلمك للشرطة

دبَّ الخوف في قلب إيهاب: هدّدتها بأن أخبر زوجها لم أهددها بأن أقتلها، أقسم لك

ميشيل: أيها الوضيع

لازال ميشيل يجره بينما كان يقاوم: انتظر دعني أشرح لك، سأخبرك بأمر، انتظر

توقف ميشيل عن جره لكنه استمر في ضربه: تكلّم إني أسمعك

إيهاب: في يوم الجريمة أمضيت الليل بطوله مع زوجتي في المشفى لقد أجهضت ويمكنك السؤال في المشفى للتأكد من ذلك، لن تستفيد أي شيء من إخبار الشرطة سوى أنك ستفضحها، أقسم لك إني هددتها بأن أخبر زوجها لا أكثر.

ميشيل: وهل أخبرته

إيهاب: لا لم أخبره، صدقني لم أخبره، كنتُ أخيفها فقط

ميشيل: كنتَ تعلم بأني أحبها، كنت تعلم بأنها لم تكن كغيرها بالنسبة لي ولم تتركها وشأنها لقد أعطيتك كل ما أردته من مال أنت وتلك العاهرة، ماذا أردتم مني أكثر من ذلك، لو لم تتصرف بقذارة لربما كانت معي الآن، ربما كانت لا تزال حيّة.

بقي ميشيل يضربُ إيهاب حتى تعب من الضرب ثم صعد سيارته وتركه مرمياً على الأرض.

****

خرجت هند من المشفى برفقة صبرية، ذهبت معها صبرية إلى منزلها بغياب عدي حيث أحضرت هند ما معها من مال وذهب كانت تخبئه وعادت إلى منزل والدتها صبرية، أخبرت صبرية عدي أن هند لا تزال متأثرة في الحادث وستمضي فترة في منزلها، ملَّ عدي من وضع هند وشعر بأن عقلها قد تأثر بسبب الحادث، ذهب لزيارتها في منزل والدتها لكنها كلما رأته كانت تبدو وكأنها ترى الشيطان وتبدأ بالصراخ: أريدُ أمي ابتعد عني، من أنت؟ لا أريدك.

بدى عدي مستاءً غادر منزل والدتها وهو غاضب: يبدو أن ابنتك قد أصابها الجنون، أوشك أن يمضي أسبوع على الحادث وهي لا تزال تتصرف كالمجانين، تحدثي إليها إني أمضي أياماً ولياليٍ في العمل كي أرتاح حين يأتي وقت إجازتي، لا لأعود أعزباً

كانت هند قد أهدت والدتها صبرية الذهب الذي وعدتها به والذي سيضمنُ لها انحياز والدتها لها، أجابت صبرية على كلامه بحدة: كادت زوجتك أن تموت وأنت تتحدثُ عن راحتك ما هذه الأنانية، ألا يكفي بأنك تركتنا لوحدنا في المشفى، إنك زوجٌ سيء، زوجتك تحتاج رعايةً خاصة هذا ما قاله الطبيب.

عدي: لا تخطئي معي في الكلام لقد قلتُ لكِ ما لدي إن كان الحادث قد جعل من ابنتك امرأة مختلة فأبقيها عندكِ، سأمهلكِ أسبوع على الأكثر كي تعيديها إلى رشدها وإلا سيحدثُ ما لا يرضيكِ

صبرية: لماذا ستنتظر لأسبوع؟، طلّقها الآن.

عدي: يبدو بأن عدوى الجنون قد انتقلت لكِ، سأنتظر لبضعة أيام وآمل أن تتحسن فالعشرة لا تهون بهذه السهولة.

خرج يوسف من غرفته في المشفى، توجه إلى الاستعلامات وقام بالسؤال عن رقم غرفة هند لكنهم أبلغوه بأنها قد غادرت، كان يوم مغادرته للمشفى كان يشعر بالفقد لا أحد يحبه ولا أحد يخاف عليه، كانت تدور الأفكار في عقله، لو كانت سالي موجودة لما بقيَّ وحيداً في المشفى ولما عاد إلى المنزل وحيداً، كل شيء أصبح بالنسبة له ناقصاً فقدت كل الأشياء نكهتها وماتت في عينيه كلُّ الآمال، كان يرغب في الحديث إلى أحد، أن يبوح بما في قلبه لعلَّ هذا يهوّن عليه حزنه لكن لا يوجد أحد، شعر بالندم لأنه تحدث مع هند بعصبية وأزعجها بكلامه فربما هي الشخص الوحيد الذي سيفهمه فهي صديقتها الوحيدة.

دخلَّ إلى المنزل، بدى كل شيء داخله بلا حياة، بارداً وباهتاً بعد أن تركت وصمة الموت أثرها على كلِّ ما فيه، كان يتمنى لو أن الحادث الذي تعرض له قد أفقده الذاكرة أو أن يجد دواءً يعزز النسيان كالأدوية التي تعزز الذاكرة، ألقى نظرة على غرفتهم لكنه لم يمتلك رغبة في الدخول إليها بعد غيابها، أخذ دواءً يساعدُ على النوم استلقى في الصالة وأغمض عينيه متمنيّاً أن يستيقظ من هذا الكابوس ويجد سالي بجواره.

عاد ميشيل إلى المنزل كان يشرب الخمر وهو يستمع إلى أغنية " بلا ما نحس" التي رقص عليها سابقاً مع سالي، نهض وبدأ يرقصُ لوحده بينما كانت كريستين تراقبه عبر النافذة بقلق، مشت نحوه بغضب وأطفأت الأغنية: ما الذي تفعله بنفسك يا أخي وما كلُّ هذه العقاقير التي في الداخل، لا يوجد شخصٌ في كل هذه الحياة يستحق أن تفعل بنفسك هذا لأجله.

ميشيل: يوجد هيَّ

كريستين: هل خانتك؟

ميشيل: لا إنها تخاف من الخيانة وتخاف من الموت، وأنا خنتُ ثقتها ثم ماتت

كريستين: ليرحمها الرب لكنك حيّ والمستقبل لا يزال أمامك، لا تضع رأسك في الظلام وتقول بأن الحياة قاسية، أياً يكن ما حدث لا تجلد نفسك بهذا الشكل، الفتيات

كُثُر وأنت شابٌ وسيم وستجدُ من تحبك وتُحبُها لا تلقي نفسك في الهاوية لأجل فتاة رحلّت.

ميشيل: كُفي عن هذا الهراء، ألم تأتي للاطمئنان إلى حالي، أنا بخير، عودي من حيث جئت، فأنا لا أرغب بأن أرى أي أحد.

كريستين: لن أعود، لن أتركك بهذه الحال وأغادر.

ميشيل: إذاً شاهدي لكن بصمت ولا تتحدثي عن الحب وأنتِ لا تعرفينه، لا تتحدثي عنها وأنتِ لم تعرفيها ولم تعرفي كم كنتُ أحبها

كريستين: مأ رأيك أن نذهب إلى الطبيب؟ سيعطيك دواءً يخفف عنك.

ميشيل: لا تبدئي بحركات المثقفين هذه، اصمتي فقط اصمتي وسأكون بخير لا أريد أن أتحدث لأي أحد.

تركته شقيقته وقد طغى الحزن والخوف على ملامحها ودخلت.

منذ أن قُتلت لم يتمكن من أن يذرف دمعةً واحدةً كان يشعرُ بالصدمة، كلّما اقترب من مواجهة حقيقة موتها وانعدام وجودها إلى الأبد كان يتناول العقاقير المخدرة كي تتلاشى قسوة الموت في ذهنه، الموت الذي لم يخطُر على باله، ولم يُعر وجوده في هذه الدنيا أي اهتمام ففاجأهُ بسرعة حضوره وخطف منه الفتاة التي طالما تمنى أن يقوم هو بخطفها وتملُّكها لكن براعة الموت وخفته سبقتهُ إليها.

****

منذ أن أخبرته لمى بسبب عدم رد منى عليه وسبب قرارها بقطع العلاقة فيه والغضب يلتهمه، كانت لمى تحدثه معظم الوقت وحين يبدأ بالحديث عن منى تبدأ باختلاق الأكاذيب لزرع مشاعر الكره في قلبه اتجاهها، اتصلت به وطلبت أن يلتقيان، لم يعُد عمران يهتم لدراسته، كان قد اتفق مع منى على أن ينهي دراسته الجامعية في هذا العام ويتقدم لخطبتها حين تنهي الامتحانات النهائية في الشهادة الثانوية، الآن يحاول أن ينتزع منى من قلبه وسيفعل أي شيء كي ينساها.

اقترب المساء، كانت الأمطار تهطل بغزارة وهو يتمشى مع لمى في إحدى الشوارع الفارغة.

عمران: لا أصدق بأنها وضيعة إلى هذا الحد، يخطر على بالي أن أرسل لها كلاماً يؤذيها، أن أصرخ في وجهها وأخرج القهر الذي في داخلي، يخطر على بالي أن أزعجها قدر ما استطعت.

لمى: لماذا تحب أن تبدو ضعيفاً إن أكثر ما يزعج الفتاة هو التجاهل، إنها تظنُّ بأنها ذات قيمة كبيرة لديك، اجعلها تشعر بأنك تعيش حياتك سعيداً وأنها لم تكن مهمة ولم تؤثر عليك فهذا سيمنحها نفس شعورك الآن، ستشعرُ بأنها كانت مخدوعة ومتوهمة بحبك لها وأن رحيلها لم يعني لك شيئاً، لا ترسل لها ولا حتى كلمة واحدة انشر حالات تدل على سعادتك عبر تطبيقات التواصل الاجتماعي، عش لحظات ممتعة وشاركها عبر هذه التطبيقات.

عمران: أنتِ محقة، يجبُ أن أجعل حياتي أفضل مما كانت وأن أعود للاجتهاد في دراستي.

لمى: بالطبع عليك فعل هذا في النهاية هي ستتزوج وستسافر وتعيش في السعودية وأنت ستفشل في دراستك، ستكون الخاسر الوحيد إن بقيت على هذا الحال، اجتهد كي تحصل على فرصة عمل مميزة أو لتسافر وتعمل في الخارج، حينها لن تزعجها فقط بل ستجعلها تندم لأنها فضلت المال والسفر على الحب.

وقفا أسفل إحدى الشرفات وأخذا يراقبان هطول الأمطار: كم أنتِ فتاة لطيفة وواعية

التفتت لمى إليه واقتربت منه وهي تنظر إلى عينيه، أمسكت يده: وكم أنت شاب وسيم، يا لها من حمقاء من تفضلُ غيرك عليك.

استطاعت أن تُدخِل الفرح إلى قلبه بكلماتها وتزيد من ثقته بنفسه شدَّ على يدها وابتسم بخجل: شكراً لكِ.

لمى: ما رأيك أن نتصور في هذا الجو الجميل؟

عمران: موافق

أخذا يلتقطان الصور، تارة تسند رأسها على كتفه وتارةً تحضنه، كان مسروراً لقد وجد فتاةً تخفف عنه وطأة آلامه وتنسيه باهتمامها قصته مع منى، عاد إلى المنزل سعيداً، استقبلته والدته : أراك ذهبت بحالٍ وعدت بحالٍ أخرى، ما السر؟

عمران: لم يكن ما حدث يستحق حزني لماذا سأحزن بينما تكون هي مسرورة، لماذا سأنهي أحلامي بينما تبدأ هي بتحقيق أحلامها.

أم عمران: هذا هو ابني الذي أعرفه عاقلٌ وقوي.

عمران: لقد وجدت الفتاة التي تليق بي، كانت أمامي كلَّ هذا الوقت لكني كنتُ أعمى القلب ولم أراها

أم عمران (باستغراب): بهذه السرعة؟ من هيّ؟

عمران: لن أتحدث بالأمر الآن عليَّ أن أدرس وحين أنجح في جميع المواد سأطلعك على التفاصيل لتطلبيها لي.

أم عمران: لا تتسرع يا بني إنك الآن مزعوجٌ من منى وتصرفك هذا ما هو إلا ردة فعل، أي أنك تريدُ أن تنساها بفتاة أخرى.

عمران: لا تذكري اسمها يا أمي لا أريدُ أن يسوء مزاجي مجدداً كما أني لن أتسرع، قلت لك أني لن أرتبط بهذه الفتاة رسمياً إلى بعد أن أتخرج من الجامعة.

أم عمران: كما تريد يا بني لكن لا تغضب، سأحضر لك فنجان من القهوة كي تتمكن من التركيز في دروسك.

دخلت والدته إلى المطبخ لتعد القهوة بينما بدّل ثيابه وجلس حول الطاولة ليبدأ الدراسة، كان يتجاهل التفكير بمنى استمر بإشغال نفسه بالدراسة حتى نام فوق كتبه.

كانت منى تراقب السماء من نافذتها حتى أشرقت الشمس، لقد أصبحت هزيلة أكثر وذَبُلَت أكثر، كانت نادمة تفكر (لقد ماتت وهي حزينةٌ مني، كسرتُ قلبها، لكني لم أظلمها والدي لم يكذب لقد رأيتها أيضاً تقفُ مع شاب بجوار المدرسة، وماذا يعني أن تقف مع شاب أنا أيضاً كنتُ أحب عمران وهو يحبني لطالما وقفنا سوياً لكنها كُشفت أمام الجميع أما أنا فلم يلحظ هذا أحد خصوصاً أنه ابن جيراننا، لم تستحق مني هذا العقاب، ليتني رأيتها قبل أن تموت، ليتني حدثتها وقلت لها ما حدث لي، كنتُ أرتاح حين أُحدثها، أحببتها كثيراً، لا أصدق أنها رحلت، لا أصدق شيئا مما حدث لي ولها، ليرحمها الله)

أخرجت هاتفها من تحت الوسادة وقامت بتشغيله فتحت على تطبيق الواتس فتحت على الحالات فرأت بأن عمران وضع صورة ليده وهو يمسك بيد فتاة وعلى الصورة وضع أغنيته المفضلة والتي قد أهداها لمنى سابقاً (وبعيش ايامي أنا إنت ومعي وبدوب من كتر الهنا إنت ومعي ما بخاف من غدر الدني وبقول مدري شو بني عصافير بتصير تحكى وتلعب معى)

تمالكت نفسها، لاحظت وصول رسائل من لمى، قامت بفتح الرسائل فوجدت صورة لمى مع عمران وهو يحضنها وكتبت لها أسفل الصورة (لقد ارتبطنا أتمنى أن لا ترسلي له وتزعجيه فأنت الآن من الماضي بالنسبة له وعلى الماضي أن لا يختلط بالحاضر حتى لا يلوثه)

غطّت منى كامل جسدها ووجهها بالغطاء وأجهشت بالبكاء.

****

كان يوسف نائماً في الصالة، استيقظ على صوت طرق الباب، نهض بكسل، لم يكن يتوقع أن يأتي أحدٌ لزيارته، فتح الباب ليجد هند : كيف حالُك؟

يوسف: ما زلتُ حيّاً

هند: هل لا تزال غاضباً مني؟، ألن تطلب أن أدخُل؟

يوسف: لستُ غاضباً، فاجأتني زيارتك لا أكثر، تفضلي بالدخول

أخذت تتأمل أرجاء المنزل ولاحظت ثوب سالي الموضوع على الأريكة التي كان يوسف ينام عليها: جئتُ لأودعك سأسافرُ إلى منزل شقيقتي في اللاذقية ومن هناك سأهاجر عبر البحر إلى إحدى دول أوروبا

يوسف: لماذا اعتقدتِ بأني أنا من قتل سالي؟

هند: لا زلت تفكر في الأمر لقد أزعجتني بما قلته فاردتُ إزعاجك لا أكثر.

يوسف: اممم ولماذا ستسافرين؟ هل ستذهبين مع زوجك؟

هند: لا سوف ننفصل، وبالتأكيد والدتي لن تحتمل أن أبقى مطلقةً في منزلها لفترة طويلة لذا سأشق طريقي لوحدي، لماذا لا تفعل مثلي، لم يبق لك أحد هنا انضم لي لنسافر سويّاً.

يوسف: لم أفكر في الأمر ولا أرغب في أن أفكر بأي شيء لأني سأصاب بالجنون من التفكير

هند: سأعطيك رقم هاتفي وعنوان منزل شقيقتي إذا تغيّر رأيك أخبرني، هل بإمكاني أن أتجول في أنحاء المنزل لألقي عليه نظرتي الأخيرة ففي كل مكان لي ذكرى معها، لطالما شعرتُ بأنه كمنزلي.

يوسف: بالطبع.

جلس يوسف على الأريكة بينما أخذت هند تدخلُ إلى الغرف وتلقي نظرةً عليها، رأت حقيبة يوسف التي أتى بها من السفر موضوعةً على الأرض في غرفة النوم، فتّحت إحدى السحابات بهدوء وأخرجت من داخل ثيابها رسالةً وقامت بوضعها داخل الحقيبة ثم خرجت.

تحدث يوسف وهو ينظر نحو الأرض وعينيه تملؤهما الدموع: كلُّ شيء يذكرني بها، أراها في كلِّ ركن من أركان المنزل، إنها سالي حبيبة قلبي التي كانت سبب سعادتي اليوم أصبحت حزني الأكبر، أصبحت مأساتي التي سأعيشها إلى أن أموت.

لوّت هند شفتيها جانباً فكلامه لم يعجبها ثم جلست بجواره: أشعر بما تشعر به إنها صديقتي المقربة، لذا أنصحك بأن تسافر، سنخرج من البلد بطريقة غير شرعية يمكنك الذهاب معنا، موعد الرحلة سيكون بعد بضعة أيام.

استلقى يوسف: اعذريني أنا مُتعَب

هند: حسناً سأغادر الآن، فكّر فيما قلته لك.

****

قبل الجريمة ببضعة أيام...

مرّت أيام وهاتف سالي النقال الذي أهداه ميشيل لها مغلقاً وهي لا تزال تتجاهل هند إذا اتصلت على هاتفها الآخر وكانت تغلق الهاتف في معظم الأحيان وحين كانت ترى رقمها على الهاتف الأرضي لم تكن تجيب ولم تكن تفتح لها باب الشقة حين ترى من ثقب الباب بأنها الطارقة.

بعد أن أمضى ميشيل أياماً في السهر مع الفتيات وشرب الخمر وتناول الحبوب والعقاقير المخدرة، استنتج بأنه لا يستطيع أن ينساها، حاول الاتصال بها مراراً وتكراراً لكن رقمها كان مغلقاً، دفع المال لهند وطلب منها أن تذهب إليها وتقنعها بأن تراه لكن هند لم تتمكن من الحديث معها أو الوصول إليها.

اقترب المساء قررت سالي أن تلهي نفسها بأي شيء حتى تنسى التفكير بميشيل، قامت بتنزيل فيلم كوميدي ثم استعدت للذهاب إلى الدكان لشراء المكسرات والمشروبات الغازية، ما إن فتحت باب الشقة حتى تفاجأت بميشيل جالس على الدرج المواجه للباب، كان يبدو متعباً وغير متزن: سالي، أخيراً

سالي: ماذا تفعل هنا؟ ارحل أرجوك

ميشيل: لن أذهب من دونك

أمسك ميشيل يدها ليأخذها معه: ستفضحني ميشيل أرجوك توقف، اذهب أمامي وسأتبعك

ميشيل: لا إنك تكذبين

سالي: أقسم لك، أعدُك

ميشيل: حسناً سأنتظرك في السيارة في بداية الشارع، إياكِ أن تتأخري

كانت سالي ترتجف من الخوف، دخلت إلى الشقة من جديد أحضرت الهاتف الذي من ميشيل وأخبرت فرح بأنها ستتأخر، مشّت في الحي وهي تنظر حولها خوفاً من أن يراها أحدٌ يعرفها، دخلّت إلى السيارة وطلبت من ميشيل التحرك، بعد أن ابتعدا عن الحي: لماذا فعلت هذا؟ إلى أين نحن ذاهبان؟

ميشيل: ستبقين معي

سالي: هل جُننتَ؟ كنا أصدقاء ونحن الآن لا شيء

حلَّ المساء، توقف ميشيل في إحدى الطرقات غير المسكونة، قام بقفل أبوب السيارة من الداخل وإرجاع المقعد الذي تجلسُ عليه سالي إلى الوراء: ماذا تفعل!

شعر ميشيل كأن شخصاً آخر يقطنُ في جسده ويقوم بالتحكم فيه، أخذ يقترب منها بالقوة: ستكونين لي رغماً عنك، لقد صبرتُ عليك كثيراً

سالي: أرجوك لا، أرجوك يا ميشيل ابتعد، ألم تقل بأنك تحبني؟

كانت تحاول دفعه بلا فائدة: إذا كنت تحبني ابتعد عني

ميشيل: إلى متى ستستمرين في إذلالي

بعد أن تمّكن منها لم يكن بوسعها إلى أن تبكي وتبكي وتبكي، لقد خاب ظنُّها، وجعلت من نفسها سلعةً بلا ثمن، انتهى مما فعله، جلس في مكانه وأخذ يراقبها وعقله يستوعب ببطء ما فعل، اقترب منها بلهفة ليساعدها على النهوض فدفعته: لا تمسني، ابتعد عني

ميشيل: لا أدري كيف فعلت هذا، لم أكن في وعيي، سامحيني

كانت الدموع تغطي عينيها حاولت فتح الباب لمجاور لها لكنه لازال مقفلاً: أخذت مني ما تريده، دعني وشأني الآن، أخرج من حياتي ولا تعد إليها مجدداً

لمعت الدموع في عيني ميشيل المتعبة، لقد خسر نفسه وخسرها: أنتِ ما أريده، أتذكرين كيف كنت حين التقينا في المرة الأولى، انظري إلى حالي الآن لقد جعلني حبك مثيراً للشفقة، أدمنتُ كلَّ ما هو سيء كي أتوقف عن إدمانك لكني لم أستطع

استمرت سالي بالبكاء: لقد أهنتُ نفسي وأهنتُ زوجي الذي يحبني حين سمحتُ لك أن تكون جزءاً من حياتي كيف سأنظر إليه بعد الآن، إني لا أستحقه.

ميشيل: لا أحد يحبك أكثر مني، إني مستعدٌ لأن أضحي بنفسي لأجلك

سالي: لقد ضحيت بي لأجل نفسك

ميشيل: أرجوكِ انسي ما حدث، كنتُ تحت تأثير العقاقير، لم أكن قادراً على السيطرة على نفسي

سالي: لكني كنتُ بكامل وعيي، افتح الباب

ميشيل: سأفعل أي شيء لتغفري لي، قولي لي ماذا تريديني أن أفعل وسأنفذ

اقترب ليمسح لها دموعها فأبعدت يده بقوة: لا أريد أن أراك بعد الآن، أخرج من حياتي ولا تعد إليها أبداً

تحدث ميشيل بخيبة: هل أنتِ متأكدة؟

سالي: نعم

كان يدرك قبح ما فعل لكن كلماتها قد هزّت قلبه، تنهد وحبس دموعه: سأفعل ما تريدين، سيأتي يوم ستفتقدينني فيه، ستبحثين عني لكنك لن تجديني، سيقولون لك أن ميشيل الذي لم تكن تعنيه العواطف قتله الحب، لا تعذبيني أكثر كفي عن البكاء، لن تريننني بعد الآن، سيحدث ما ترغبين به.

سالي: افتح الباب

ميشيل: لن أتركك وحدك في هذا المكان، سأعيدك للمنزل

سالي: خذني لمنزل هند، لا أريد أن تراني شقيقتي بهذه الحال.

أعادت سالي الهاتف له ورفضت أن تبقيه معها رغم إصراره، فتحت لها هند الباب وبدأت توبخها: الحمد لله لأنك تنازلتِ وجعلتني أراكِ أيها الأميرة، ليس من مقامنا أن تكلمينا

كانت سالي ترتجف وتشعر بأن جسدها بأكمله يؤلمها، تحدثت بصوت مبحوح من كثر البكاء: دعيني أدخل

هند: ما بكِ؟

دخلت سالي إلى الصالة واستقلت على الأريكة: أريد أن أرتاح

أغمضت سالي عينيها ونامت على الفور وهي لا تزال ترتجف، اقتربت هند منها ووضعت يدها على جبينها: إنها ساخنة

أحضرت لها حبة دواء مسكن وحاولت أن تجعلها تنهض كي تشربها لكن سالي بدت كأنها فاقدة الوعي كانت فقط تأن وترتجف وهي نائمة

هند: ما هذه المصيبة؟ ماذا سأفعل بها؟ هل سأعمل أُمّاً الآن، هل هذه آخرتك يا هند!، سأدخل للنوم ولتذهب للجحيم.

دخلت هند إلى غرفتها أخذت تتأمل نفسها في المرآة بإعجاب، اتصل ميشيل على هاتفها.

ميشيل: هل لا تزال سالي في منزلك؟

هند: نعم إنها هنا ماذا حدث معكما؟

ميشيل: هل هي بخير؟

هند: حرارتها مرتفعة ولا أعلم هل هي نائمة أم غائبة عن الوعي، حاولت أن أجعلها تأخذ حبة مسكنة لكنّها لم تنهض، ماذا فعلت لها؟

لم يُجب ميشيل وأنهى الاتصال: وضعت هند الهاتف جانباً (أحمق)

قامت بالاسترخاء على السرير، دقّ باب المنزل فخبأت هند هاتفها وتوجهت لتفتح، إنه ميشيل ومعه الطبيب، اقتربت منه وهي غاضبة: ما الذي تفعلهُ هنّا، لا يمكنني أن أجعلك تدخل

ميشيل: أحضرت الطبيب

هند: خُذه وارحل

أخرج ميشيل رزمة من المال وأعطاها لها: أريد أن أدخل

ابتسمت هند: الآن يستحق الأمر المخاطرة، ادخلا

قام الطبيب بفحصها: ماذا حدث معها؟، إنها منهارة يبدو بأنها قد تعرضت لأزمة نفسية، سأعطيها إبرة مهدئة وعليكم عمل كمادات ماء بارد حتى تزول الحرارة، والأهم من هذا الراحة وعدم الإزعاج.

حلَّ الصباح، فتحت سالي عينيها بتعب ونظرت حولها وهي تحاول استيعاب ما حصل، خرجت هند من المطبخ وهي تحمل فنجان القهوة، نهضت سالي بقلق: فرح، لم أخبر فرح

هند: لا تقلقي، اتصلت وأخبرتها بأنك ستنامين هُنا لقد وصلتِ إلى هنا منهارة وحرارتك كادت أن تحرق المنزل، هل تعلمين من أحضر الطبيب؟، ومن بقي بجوارك

طوال الليل وهو يضع لك الكمادات كي تنخفض الحرارة، إنه ميشيل لو كنتُ مكانك لما تركته للحظة، لم تقولي لي ما الذي حدث معك؟

اقتربت سالي منها وكانت غاضبة كما لم تفعل من قبل: ما الذي تحاولين فعله؟ لماذا أخبرت ميشيل بعنوان منزلي، تعلمين بأني كنت حذرة ولا أريده أن يعرف العنوان

هند: لماذا تصرخين في وجهي، هل اهتمام ميشيل بك جعلك تصدقين بأنك فتاة مهمة، تحدثي معي بشكل جيّ

توجهت سالي نحو الباب الخارجي: تعلمين كم يوسف عصبي، إياكِ أن يعلم يوسف بأي شيء فعندها لن أموت وحدي بل سأفضح كل شيء، سيكون مصيرك كمصيري لذا كوني حذرة

هند: لا يوجد من يهدد هند الظاهر بأنه على الرغم من سنوات الصداقة الطويلة لا تزالين لا تعرفينني أنا لا أسمح لأحدٍ بإيذائي وإذا أقدمتِ على أي عملٍ أحمق سيكون ثمن هذا أغلى مما تتصورين

سالي: أظنُّ بأني قد دفعت الثمن وليس مهماً ما سأخسره بعد الآن وأيُّ مصيرٍ سألقاه، لكنك لم تدفعي بعد، ربما لا يخيفك عدي كما أخاف من يوسف لكنك تعلمين بأنه إذا علم أقرباؤك بما تفعلين

من المؤكد أنهم سيسافرون من القرية إلى هنا كي يغسلوا عارهم، لذا لا تخطئي معي أكثر وانسي أنّا كنا أصدقاء حتى لا أفعل شيئاً لن يرضيكِ ولن يرضيني.

خرجت سالي وأغلقت خلفها الباب بقوة بينما بقيت هند واقفة تنظر نحوها والحقد يقطر من عينيها.

كانت سالي تتمنى الموت، أصبحت تمضي معظم أوقاتها نائمة، قررت أن تترك يوسف لم تعد تستطيع أن تستمر معه كأن شيئاً لم يكن فما حصل لا يمكن نسيانه أو تجاهله، لم تكن تنوي إخباره بحقيقة أفعالها الخاطئة لكنها أرادت أن تخبره الأسباب التي دفعتها لما فعلت، أخذت تكتب الرسائل الطويلة وتمحيها وفي النهاية اختصرت كل شيء ببضع كلمات (أنا لستُ سعيدةً معك أريد الطلاق وهذا قرار نهائي)، لم تصل الرسالة فخطه كان خارج نطاق الخدمة.

تمنّت لو أنها تستطيع الهروب بدلاً من مواجهة يوسف، لكن إلى أين ستهرب وكيف ستترك فرح.

كان يمرُّ في بال ميشيل جميع ذكرياته معها، عاد من ذكرياته عندما اقترب من المقبرة، نزَّل من السيارة وهو يحمل بيده باقة كبيرة من الأزهار.

****

لم يتوصل هادي ونضال إلى أي خيطٍ من الممكن أن يرشدهما إلى القاتل، ذهبا إلى المدرسة بعد أن بدأ دوام الفصل الدراسي الثاني كي يتمكنوا من الحديث إلى جميع الطالبات والمدرسين، بعد وقت طويل أمضياه في التجول في المدرسة للحديث مع الموجودين عادا إلى مكتب المدير، كانا قد طلبا من كامل عدم مرافقتهما كي تتمكن

الطالبات من الحديث معهما بحرية، جلس هادي باستياء: لماذا أخفيت عنّا بأن ابنتك كانت صديقة لفرح؟

كامل: كانتا صديقتين منذ أشهر لكن بعد أن انتقلت منى لشعبة أخرى قلَّ الحديث بينهما

هادي: لماذا لم تتحدث عن هذا الموضوع

كامل: لا أظن بأن منى تمتلك معلومات مفيدة

غَضِبَ هادي: نحن من نقيّم هذا الأمر

كامل: ابنتي مريضة ولم تأتي إلى المدرسة منذ مدة، لم أرد أن يتم الضغط عليها بطرح الأسئلة

نضال: نريد الحديث إليها

كامل: لقد زاد مرضها بعد أن علمت بموت فرح وساءت حالتها النفسية، هل يمكنكما الانتظار لفترة ريثما تستعيد صحتها.

هادي: اطمئن لن نزعجها، بضعة أسئلة فقط.

انتهى دوام المدرسة خرجت لمى برفقة عمران لتناول الغذاء في أحد الأماكن، كان المطعم هادئاً والموسيقى الرومانسية تملأ المكان، لاحظ عمران بدء تساقط حبيبات المطر الناعمة على النافذة الزجاجية المجاورة له مرَّ في باله صوت منى (كم أحبُ المطر) أراد أن يحدث لمى فلفظ اسم مَن تقطنُ قلبه، ردت لمى بحزن: اسمي لمى وليس منى.

أمسك بيدها: لا تحزني أنا فقط معتادٌ أن أنده اسمها لا أكثر.

لمى: حقاً؟

عمران: حقاً.

أمسكت لمى هاتفها النقال وقامت بالتقاط صورة لهما سوياً.

وصلّ كامل برفقة هادي ونضال إلى منزله، توقفت هالة عن إعداد الطعام وخرجت لاستقبالهم.

كامل: حضري القهوة لسيادة المحقق ومساعده

هالة: خيرٌ إن شاء الله

هادي: لا تحضري شيئا إننا في عجلة من أمرنا، نريد أن نتحدث مع منى قليلاً

كامل: لا تقلقي بضعة أسئلة بشأن فرح

نضال: اطلبي منها الحضور من فضلك

كامل: إنها ترفض الخروج من غرفتها، تفضلا سندخلُ إليها

طرق كامل باب الغرفة ثم دخل، تجمّد في مكانه وتوقف عقله عن التفكير، إنه عاجزٌ عن فهم ما يراه، كانت لمى معلقةً من عنقها بحبلٍ ممدودٍ إلى السقف، لقد شنقت نفسها، جثا كامل على ركبتيه من هول المنظر، بعد لحظاتٍ من الصمتٍ المخيّم بدأ يبكي بشكل هستيري، كان هادي ونضال مصدومين في حين ركضت هالة لتستطلع الأمر لكنّها لم تحتمل ما رأته فأُغمي عليها.

كان عمران صاعداً إلى شقتّه حين رأى رجال الشرطة يدخلون إلى شقة كامل وسمع صوت بكاء هالة وصراخها في كل أنحاء الطابق، كان الجيران مجتمعون بالقرب من الباب، حاول الدخول لاستطلاع الأمر لكن رجال الشرطة لم يسمحوا له، سأل أحد الجيران فأجابه: يقولون بأن ابنتهم انتحرت؟

جاءه هذا الخبر كالصاعقة: منى؟

الجار: لا أعلم ما اسمها

أخذ يصرخ محاولاً الدخول: أريدُ أن أدخل، أريدُ أن أرى العم كامل.

الشرطي: ممنوع

عمران: قلتُ لك أريد أن أدخل الآن

خرج نضال على صوت صريخ عمران: مَن أنت؟

عمران: أنا جارهم كانت منى ستكون خطيبتي أريدُ أن أراها دعني أدخل أرجوك

نضال: أدخل.

كان والداها يبكيان في الصالة والطبيب الشرعي في غرفة منى، ألقى نظرةً إلى داخل الغرفة فرأى حبلاً مُتدلٍ من السقف ومنى مستلقية على الأرض وقد فارقت الحياة، حاول عمران الاقتراب لكن نضال منعه.

ابتلع عمران دموعه: هل ماتت؟

نضال: نعم

كانت هالة تصرخُ على كامل: قلتُ لك أن تخبر الشرطة منذ البداية، قلت لك أن نأخذها إلى الطبيب النفسي

كامل: لم أُرد أن أفضح ابنتي ولم تكن تقبل الذهاب للطبيب

عمران: ماذا حدث معها؟ هل كانت حقاً مريضة؟

لم يُجب أحدٌ على سؤاله، ولم يرغب كامل في وجوده فطلب نضال من بعض رجال الشرطة مرافقته إلى الخارج، وجد والدته تقف بالقرب من الباب مع الجيران، كان يكفكف دموعه فأمسكته من ذراعه: ماذا يحدث؟ هل صحيح ما سمعته؟ هل ماتت؟

عمران: ماتت يا أمي ماتت.

أم عمران: لماذا فعلت هذا بنفسها؟

عمران: لا أعلم

أم عمران: ليصبر الله قلب واديها وقلبك، اهدأ يا بني ارجوك، ليرحمها الله ويغفر لها.

****

كانت تنظرُ عبر النافذة وهي تركب وسيلة النقل الخاصة لإيصالها إلى منزل شقيقتها في محافظة اللاذقية وهي محافظة ساحلية، لم تخبر أحداً من عائلتها أنها تخطط للهجرة غير الشرعية عن طريق البحر، كانت شاردة تتذكر يوم الحادث الذي قلب حياتها رأساً على عقب.

في ذلك اليوم كانت جالسةً على الشرفة تأكل الفواكه الشتوية وتدّخن الأركيلة حين بدأت الرسائل تصلها من عدي، لقد أرسل لها صورها مع إيهاب بوضعيات حميمية وأرفقها بهذه الكلمات (لقد أرسلت لي تمارى زوجة إيهاب هذه الصور وعلمتُ بكل شيء، سأصمت كي لا يشك أحدٌ بأني قتلتك حين آخذ روحك أو سأنتظر عودة شقيقك ليأخذ روحك بنفسه، إني محتارٌ في وسيلة التعذيب التي سأتبعها، ربما يجب علي استثمارك، سأنشئ موقعاً خاصاً بقذاراتك و أجني منه الكثير من المال لكن ربما سيسعدك هذا، لا تظني بأني غافلٌ عن أخطاءك إني أتظاهر بالجهل وسأظل أتجاهل حتى تظنين بأني قد نسيت الأمر لكنك لن تتوقعي متى سيصفعك كف العقاب ولن تتوقعي قوّته).

حاولت حينها الاتصال بإيهاب لكن رقمه كان مغلقاً، لم تعلم ماذا تفعل فتوجهّت لصبِّ غضبها على تمارى.

لقد غيرت ليلة واحدة مسار حياتها، كانت قد تركت المال الكافي مع والدتها كي توكل محامٍ في قضية الطلاق إن رفض عدي الانفصال، كانت تسعى للسفر بأسرع وقت ممكن هرباً من الفضيحة، وصلت إلى منزل ندى، كانت ندى تعملُ معلمة وتعيش مع ابنتها لانا ذات الخمسة أعوام وزوجها الذي يعمل كموظف في مؤسسة الكهرباء، أحسنا استقبالها وأصبحت ندى تترك لانا عندها بدل إرسالها إلى الروضة، لم تكن هند تُحسنُ معاملتها فهي سيكوباتية عديمة التعاطف وكانت لانا تخافُ منها بسبب قسوتها عليها، اتصلت صبرية بهند بينما كانت جالسة مع الجميع فنهضت وأخذت تمشي في الصالة وهي تتحدث إليها.

كانت صبرية سعيدة: لقد قام برمي يمين الطلاق ويقول لك بأنك طالق طالق طالق لم يكن الأمر بحاجة إلى توكيل محامٍ، أقنعته فقط بأن الحادث قد أثرَّ على عقلك وأن الطبيب أخبرني بأنها ستكون حالة دائمة وقلت له بأن تصرفاتك أصبحت غريبة ومخيفة ولقد أرسلتك إلى منزل شقيقتك لأني تعبت من اختلالك النفسي وبالطبع أوصيتّه أن يبقي الأمر سراً.

هند: وهل صدق ما قلته؟

صبرية: لقد طلقك يا مجنونة بالتأكيد صدق إني بارعةٌ في الإقناع.

طُرِقَ الباب الخارجي كانت هند واقفة بقربه وبيدها الهاتف، أنهت المكالمة وفتحت الباب لتجد أمامها إيهاب، نظرت خلفها بخوف ثم تحدثت إليه: ماذا تفعلُ هنا أيها الغبي أنا لست وحدي.

إيهاب: سأنتظرك في الحديقة المجاورة للمنزل لا تتأخري.

جلس على أحد المقاعد ينتظرها، أتت إليه وهي غاضبة وجلست بجواره: ماذا تريد؟

إيهاب: هل هكذا تتحدثين مع حبيبك!، مباركٌ الطلاق.

هند: لقد علم عدي بكل شيء، دمرت حياتي أنت وزوجتك أيها الغبي كيف تترك هاتفك بين يديها وعليه صورنا، لقد أرسلت له صورنا، ولا أدري ما الذي ينوي فعله، الحادث الذي تعرضت له وكل هذا الخراب هو بسببك.

إيهاب: كنتِ تظنين بأن الطلاق أمرٌ مستحيل وأن الجميع سيقف بوجهك إن أخذت هذا القرار، انظري إلى الجانب الإيجابي لقد حصلتِ على كلِّ ما تريدين بسهولة، والآن يمكننا أن نتزوج

هند (بسخرية): كفاك تفاهة من قال لك أني أريد أن أتزوج منك

إيهاب: حين طلبتُ منك الزواج في المرة الماضية، قلتِ لي أنه لن تستطيعي الحصول على الطلاق بسهولة، وأنتِ الآن مطلقة

هند: مطلقة لكن أمر الفضيحة لم ينتهي وزواجي منك غير ممكن

إيهاب: لماذا؟

هند: لأنك لا تناسبني كزوج

إيهاب (بغيظ): فلتعلمي إذاً بأني مَن أرسل لك الصور والتهديدات من هاتف عدي بينما كان نائماً، لم يكن لتمارى أي علاقة بما حدث لقد أردت التلاعب بك لأنك لم توافقي على الطلاق من عدي، ولقد نجحت بذلك، وأنتِ أيضاً لا تناسبيني طلبتُ الزواج منك لأني أعرفك جيداً، كنتُ سأنظم لك المواعيد مع أغنى الرجال لأحصل على الكثير من المال.

بصقت هند على وجهه ثم غادرت عائدةً إلى المنزل، لقد منحت والدتها الذهب والمال كي تحصل على الطلاق وكانت خائفة طوال الوقت وفي النهاية اكتشفت بأن إيهاب يعبثُ بها، لم تكن تنوي العودة لعدي، لقد استطاعت أن تكون حرة من جديد وتتخلص من قيود تنظيف المنزل وإعداد الطعام وانتظار الزوج الذي لم تحبه منذ البداية.

****

كان يوسف يفكرُ فيما سيفعله لقد كرّه كل شيء حوله ولو كان بوسعه أن يغادر نفسه لغادرها، فكّرَ بكلام هند عن الهجرة، كان قد تعافى وحان موعد عودته للخدمة العسكرية، كان عليه أن يقرر فيما سيفعله، وبعد تفكيرٍ طويل ومعاناة مع الذكريات قرر الهجرة، أمسك بالحقيبة التي يضع فيها أغراضه عادةً عندما يغادر وبدأ بوضع بعض الثياب والحاجيّات فيها فلاحظ وجود ظرف بداخله رسالة فتح الرسالة فسقطت منها صورة صغيرة على الأرض، تجاهل الصورة التي سقطت على وجهها الأمامي وأخذ يقرأ الرسالة:

أعلم بأنك تسأل نفسك لماذا شككت بأنك من قتلت سالي، ببساطة لأنها ليست كما تظُن، ليست الطفلة البريئة التي تعتقدُ بأنها هي، إنها امرأة خائنة، لا تتعجب لقد خانتك وأحبت شاباً يدعى ميشيل، كانت تخطط لتركك والزواج منه، وبالنسبة لموضوع الاغتصاب ما الذي أدراك بأن الأمر كذلك ربما هو حُبٌّ على هيئة اغتصاب، لقد ظننت بأنك علمتَ بالأمر فقتلتها، لم أخبر الشرطة لأني لم أرد تشويه سمعتها بعد وفاتها، إنها لا تستحق حزنك هذا صدقني، أرفقت لك صورةً لها مع ميشيل، فكّر فيما قلته لك سأنتظرك لنهاجر معاً.

تلوّن وجه يوسف بالأحمر وكاد أن ينفث النار، قلب الصورة على وجهها فرأى صورة مقصوصة لسالي وميشيل وهما يضحكان مع بعضهما وسالي ترتدي فستاناً مكشوفاً، أخذ يربط الأحداث ببعضها، رسالة الطلاق وموضوع الاغتصاب وباقات الأزهار التي يجدها على قبرها كل شيء يدلُّ على صدق هند، نهض من مكانه كبركانٍ هائج وأخذ يحطم كل صورها ويمزّقها، رمى ثيابها على الأرض ثم بدأ يدهسهم بقدميه، أخذ يتخلص من أثرها ويهين كل شيء يمسُها، وفي النهاية جلس على الأرض وبدأ بالبكاء كطفلٍ صغير.

كان الجو بارداً، كان ميشيل جالساً بجوار قبر سالي يُحدّثها: أتعلمين بأني لم أبكِ حتى الآن، لم أذرف دمعةً واحدة، لا، إياكِ أن تظني بأني لا أحبك لكنك أغلى من أن أبكي عليكِ فلبكاء راحة وكيف لي أن أرتاح بعد رحيلك، لقد دفنوا قلبي تحت التراب، قتلوني، لستُ الآن أكثر من جثةٍ متحركة، لماذا لم تبوحي لي بما كتبته؟، لماذا لم تخبريني بأنك أيضاً كنتِ تتمنين ما أتمناه لكنكِ كنتِ خائفة كثيراً ومخلصة جداً، لماذا جعلتنا نعيش هذا العذاب؟، لا تبكي، امسحي دموعك أعلم بأنه القدر، لو وضعك أمامي منذ زمن لكنّا الآن متزوجين ولدينا أطفالٌ أيضاً، ما أجمل أن تنجب الأطفال من شخصٍ تحبه، لكن قدرّنا بأن نكون أمواتاً يا حبيبتي.

أتى يوسف إلى المقبرة وهو يحمل بيده مسدساً، رأى ميشيل بالقرب من القبر فصرخ بأعلى صوته: ميشيل.

وقف ميشيل والتفت نحو يوسف، وجّه يوسف المسدس نحوه: لا أصدق بأنها خائنة وخانتني مع حثالة مثلك

ميشيل: ليتها كانت خائنة وبقيّت معي، لم أكن سأتركها للموت، أنت السبب

يوسف: سبب ماذا أيها الكلب المُختل؟

ميشيل: أنت لم تحبها، لقد جعلتها فتاةً تعيسةً تشعر بانعدام القيمة، أفقدتها ثقتها بنفسها، لم تستطع أن تحميها أو تحافظ عليها لو كنت مكانك لما تركتها وحيدة، إن كنت تحبها لماذا لم تأخذها وترحل حين طلبت منك ذلك، كنتُ مستعداً لفعل أي شيء لأجلها لكنها رفضت لم تُرِد أن تخنك، لكني أعلم ما ستفعله أيها العاشق فترة قصيرة وسينتهي حُزنك المزيّف وستتزوج.

يوسف: كفاك هراءً لا تدافع عنها فأنت تثير اشمئزازي، إنك تكذب كي تنجو مني

أخرج ميشيل مسدساً كان يخبئه في الجهة الداخلية من المعطف و وجهه نحو رأسه: إلى الآن لم ينتهي شكي بأنك من قتلها، أتظنُّ بأنك تخيفني، جئت إلى هنا لأذهب إليها بكامل إرادتي، لن أمضي حياتي أنتظرُ الموت كي يريحني، لن أتركها وحيدة بعد موتها أيضاً، إنها حبيبتي.

قام ميشيل بإطلاق النار على رأسه فسقط بجوار القبر بينما بقيّ يوسف واقفاً في مكانه مصدوماً وهو لا يزال يوجه المسدس نحو ميشيل، أخفض المسدس وسارع لمغادرة المقبرة.

****

اقترب المساء كان حبيب يستعد للذهاب لحفل توقيع روايته الأولى، كان يتألق بزيٍّ رسمي وفرحه ممزوج بالخوف، كان قلقاً بشأن عدد الحضور متشوقاً لرؤية فرح، كان الحفل في أحد المقاهي جلس حول الطاولة الخاصة به وجلست حلا بجواره، كانت قد دعّت جميع أصدقائها ونشرت الإعلانات للرواية على مواقع التواصل الاجتماعي فكان عدد الحضور مُرضيّاً، كان يترقب رؤية فرح بين الفتيات على الرغم من أنه لم يلمح صورتها إلى لثوانٍ لكنه كان واثقاً من أنه سيتعرف

إليها، كان مسروراً بإنجازه لم ينقصه إلا رؤية فرح كي تكتمل سعادته، انتهى الحفل ولم تأتي بقي منتظراً لساعة إضافية لعلها قد تأخرت على الطريق وفي النهاية أقنعته حلا بالمغادرة.

لم يعد كامل يخرج من غرفة ابنته أصبح يقيم فيها، حتى أنه بدى أشد حزناً من والدتها، ُطرِقَ باب المنزل، فتحت هالة الباب لتجد عمران، جلست معه في الصالة، ارتبكت الكلمات في فم عمران، فبدأت هالة بالحديث: أعلم بأنها كانت تحبك وأنت تحبها كنتُ أشعر بذلك، إني أحبُّ كل شيء تحبه ابنتي الغالية وأشعر كأنك ابنٌ لي، رؤيتك تريحني، لكن ما يحزنني بأنك قد ظلّمتها أيضاً لقد تسرعت في التخلي عنها.

عمران: أريد أن أفهم كل شيء، ما الذي كان يحدث؟

هالة: منذ مدة بينما كانت عائدة مساءً من عند المدرسة قام شابين قذرين بخطفها والاعتداء عليها ومنذ ذلك الوقت أصبحت ترفض الخروج لأي مكان ولا تحب الحديث مع أحد

عمران: أي أنها لم تكن تنوي الزواج بابن عمتها في السعودية؟

هالة: زواج؟ أظنُّ بأن لمى من أخبرتك بهذه الأكاذيب، لم تكن منى ترغب برؤية أحد فقلت للمى أنها سافرت إلى السعودية لقضاء بعد الوقت، لم أقل لها أي شيء عن زواج أو أي شيء من هذا القبيل، لقد رأيت هاتف ابنتي الحبيبة بعد وفاتها، لمى كانت ترسلُ لها صوركما وقالت لها بأنكما ارتبطتما، لقد أحرقت قلبها وزادت من حزنها.

أمسكت هاتف منى وأعطته لعمران كي يرى ما أرسلته لمى، أخذ الهاتف وبدأ برؤية الكلام والصور، عَلِم حينها بأن لمى كانت تكذب عليه بشأن منى للتقرب منه.

بعد عودته إلى المنزل اتصلت به لمى وطلبت رؤيته فوافق على طلبها، لم يكن قد رآها منذ موت منى، كانت تشعر بالذنب لأنها كانت تضايق منى قبل انتحارها، كانت جالسةً في المقهى، دخلَّ إليها وهو غاضب وتكلم معها بصوتٍ عالٍ: لماذا كذبت بشأن منى؟ لماذا خدعتني، وما هذا الكلام الذي كنتِ ترسلينه لها؟ أنتِ فتاة كاذبة ووقحة، لم أتخيل بأنك رخيصة إلى هذا الحد، إياكِ أن تحاولي الاتصال بي أو إرسال أي شيء إيتها القذرة.

تركهّا وجميع من في المقهى ينظرون إليها، شعرّت بالخجل من الناس، أخفضت رأسها وغادرت المقهى وهي تبكي.

****

قررّ حبيب أن يسافر مع شقيقته حلا إلى دمشق للاطمئنان إلى حال فرح، خشيَّ أن تكون قد فعلّت بنفسها مكروه فقد كانت تمر بأوقات عصيبة، وصل إلى الموقع الذي كان يظهرُ على جهازه الذكي حين تُحدِّثُه، أخذا يمشيان في المكان الذي يشبه المدينة الصغيرة ويسألون السكان، قامت حلا بسؤال عدة أشخاصٍ عن فرح لكن لم يعرفها أحد، بعد ساعة من التجوال، صادفا أم عمران، أوقفتها حلا: مرحباً خالتي

أم عمران: أهلا حبيبتي

حلا: هل تعرفين فتاة تدعى فرح بسام؟ أظنُّ بأنها تقيم قريباً من هُنا

أم عمران: بسام؟؟ لم أسمع بهذه العائلة في هذه المنطقة من قبل، ماذا تعمل؟

حلا: طالبة ثانوية عامة

ظهّر على أم عمران بأنها لم تعرفها فأخذ حبيب يشير لحلا ماذا تقول: ولديها شقيقة أكبر منها اسمها سالي

أم عمران: امممممم هل الفتاة شقراء وعينيها ملونة؟

أشار حبيب بنعم فأكملت أم عمران: آمل أن لا تكونا تريدان رؤية الفتاة التي خطرت على بالي

حلا: لماذا؟

أم عمران: لكن كنية الفتاة التي أعرفها ليست بسام، صحيح أظنُّ أن اسم والدها بسام

حلا: هل من الممكن أن ترشديني إلى منزلها؟

أم عمران: لا حول ولا قوة إلا بالله، لقد أصبحت بين يدي الله سبحانه

تسارعت نبضات قلب حبيب وأشار بما معناه: ما الذي حدث؟

أم عمران: لقد قُتِلَت فرح وقُتِلَت أيضاً شقيقتها سالي وإلى الآن لم يُعرف الفاعل.

كان حبيب يشعرُ بأن مكروهاً قد حدث لها لكن لم يَخطُر في باله القتل، كان لديه الكثير ليقوله فذهب إلى مركز الشرطة وأراد أن يخبرهم بما يعرف لينال القاتل جزاءه، أتى هادي إلى المخفر بعد أن علم بأن لديه معلومات قد تساعد في معرفة القاتل، بدأ حبيب

بالتحدث بلغة الإشارة بينما تشرح لهم حلا ما يقول: أنا صديقها على الفيس بوك وأظنُّ بأني أعرف معظم أسرارها.

هادي: وفقاً لمعلوماتنا لم يكن معها هاتف محمول.

حبيب: كان معها هاتفٌ بشكل سريّ.

هادي: حسناً أكمل.

حبيب: كانت فرح على علاقة بمدير المدرسة التي تدرس فيها، لقد وعدها بالزواج وقام باستغلالها وفي النهاية قررّ أن ينهي العلاقة، هددته بإخبار ابنته فهما صديقتان وبعد ذلك قام بمنع ابنته من صحبتها بحجة أنها فتاةٌ سيئة، كان قد أحضر لها هاتف محمولاً وشريحة باسمه وفي حديثي الأخير معها حدّثتني عن الانتقام وأخبرتني بأنها ستعيدُ له الهاتف والشريحة، إني أعتقد بأنه ربما قد قام بإيذائها خوفاً من الفضيحة.

هادي: كامل، كامل، يا لك من رجلٍ منافق.

طُرِق باب شقة كامل بقوة فتحت هالة بفزع، دخل هادي مع نضال برفقة بعض عناصر الشرطة.

هادي: أين كامل؟

هالة: في غرفة منى، ما الأمر؟

دخلوا إليه بينما بقيت هالة بالقرب من الباب تستطلع ما يحدث، كان كامل يائساً فاقداً لرغبته في الحياة بعد موت ابنته الوحيدة

جلس هادي بقربه: إنك والدٌ مثالي لكنك رجلٌ قذر، اشرح لي كيف قمت بعملية القتل التي نفذتها؟

كامل: أيُّ قتل؟.

هادي: لا تتظاهر بالغباء أعلم بأنك قتلت فرح خوفاً من الفضيحة، لأنها قررت فضح علاقتك بها باستغلالك لفتاة قاصر، لدينا أدلة وشهود لذا لا تحاول الإنكار

كامل: لستُ نادماً، مستعدٌ لقتلها ألف مرة، لقد تسببت بموت ابنتي ومَن يؤذي ابنتي آخذ روحه

هادي: تحدّث أيها السافل كلُّنا آذانٌ صاغية.

بعد الاعتداء الذي تعرضّت له منى، كان كامل يجلسُ مهموماً حولَ مكتبه في المدرسة، دخلّت فرح إليه وأغلقت خلفها الباب، أخرجت الهاتف الذي كانت تخبئه في ثيابها

وقذفتهُ في وجهه: لا أريدُ منك شيئاً، آملُ بأن يكون تحذيري الأول قد وصلّك، اعلم بأني أخبئك لك المزيد

لم يخطر في باله أن تكون خلف ما حدث لمنى، اقترب منها بغضب: هل أنتِ من أرسل الشبان لاغتصاب ابنتي

تفاجأت فرح: اغتصاب؟ لا لم ارسلهم للاغتصاب

أمسكها من عنقها وشد قبضته: لم أتخيل أن تفعلي بصديقتك أمراً كهذا

خافت فرح: أردت فقط تلقينك درساً وإخافتك لا أكثر

كاد أن ينسى بأنه في المدرسة لكن صوت الضجيج في الخارج ذكره، دفعها بقوة فأسقطها أرضاً، ولاحظ بعد خروجها سقوط مفتاح باب منزلها الخارجي على الأرض.

كانت فرح قد التقت بشاب قد تعرفت إليه عن طريق النت بالقرب من المدرسة وقامت بإعطائه فردة من أقراطها الذهبية مقابل أن يقوم بضرب منى وبث الرعب في قلبها كي تنتقم من والدها وتخيفه، لم تعتقد أن الأمور ستخرج عن السيطرة وستصلُ إلى هذا الحد.

أخذ كامل يروي لهم ماذا حدث في تلك الليلة، لقد ظنَّ بأن فرح لوحدها في المنزل فعندما كانا على علاقة كانت سالي تمضي معظم وقتها عند صديقتها هند وأحياناً تنامُ في منزلها حينها كان يأتي هو أحيانا لإمضاء الليل معها، دخل إلى المنزل وكان الهدوء مسيطراً ظنَّ بأن فرح النائمة على الأريكة لأن سالي كانت ترتدي ثوباً منزلياً قد رأى فرح ترتديه وهي معه من قبل وكان وجهها مغطى، بعد أن أطلق النار عليها التفت ليتفاجأ بظهور فرح فعلم بأن من قتلها لم تكن هي اقترب من فرح وقام بخنقها وضرب رأسها بالجدار.

كاد قلب هالة أن يتوقف مما سمعت، لم تصدق أن الرجل الذي أمضت معه سنين طويلة قد استغل صديقة ابنته واقترف أخطاءً قد دفعت ثمنها هي وابنتها.

****

كانت ندى وزوجها في العمل وهند مع الطفلة لانا، قامت هند بالبحث في غرفة النوم الخاصة بندى، سرقت الذهب والمال المُخبَّأ فيها وغادرت المنزل مع ثيابها تاركةً لانا لوحدها ثم ذهبت إلى المحطة واستقبلت يوسف الذي كان قادماً من دمشق، كان يوسف لا يزال خائباً بسبب ما فعلَّته سالي، كانت هند متفائلة: سنذهب الآن إلى منزل المُهَرِّب وسننطلق فجر الغد لكن ما رأيك بأن نتناول الغذاء سوياً: كما تريدين، لقد قرأت رسالتك، كنتِ محقّة يبدو بأنها كانت خائنة لكن القذر أنكر هذا.

هند: تقصدُ ميشيل؟ هل قابلته؟

يوسف: كان يتردد إلى القبر ورأيته هناك، لقد انتحر، أطلق النار على نفسه قبل أن أقتله.

هند: الحمد لله أنك لم تلوث يديك بدمائه النجسة، إنه مدمنٌ ويستحق الموت، لا تزعج نفسك بالتفكير بهما، لقد علموا من القاتل هل عرفت بالأمر؟

يوسف: اتصل بي المحقق النادي الليليحة لكني لم أُجبه، لم يعد الأمر يهمني كالسابق.

هند: يقولون بأنه مدير مدرسة فرح كانت تقيم علاقة معه وحين قرر تركها هددته بفضحه فقام بقتلها.

يوسف: كأني لا أعرفهما ولم أعش معهما من قبل، لم أعد أستغرب شيئاً، فقدتُ ثقتي بالجميع.

في أيام الثانوية عند بداية معرفة سالي بيوسف، كانت فتاةً متمردة، تحبُ الحياة، تحب أن ترتدي ما تريد وتذهب أينما تشاء، أحبّها يوسف وتعلقت به وبدأت غيرته تظهرُ لها وحب سيطرته عليها، قررت تركه وابتعدت عنه وفي هذه الفترة كان يوسف يتكلم مع هند ليسأل عنها، هند التي كانت تحبه منذ البداية أصبح حينها قريباً منها وأوشكت على أن تحقق مرادها في أن تبدأ معه علاقة الحب التي طالما تمنّتها، لكن سالي لم تستطع أن تقاوم أكثر، بعد إصرار من يوسف عادت للحديث معه ومحاولة التأقلم لتكون الشخصية التي يريدها.

بعد مقتل سالي بدأت هند في تحقيق حلّمها ستحصل على يوسف وستسافر معه إلى أوروبا، سيعيشان برفاهية، ستبقى مع الرجل الذي كانت تتمناه، كانت السعادة تملأُها لقد لعب القدر لعبته وأتى بيوسف إليها، المعجزة التي آمنت باستحالة حدوثها تحققت دون مجهودٍ منها.

تمّت بعون الله

أخيراً استطعت إنهاء هذه الرواية فوقتي ليس ملكي إنه ملك لكائن صغير عمره عام وثلاثة أشهر تقريباً وأنا خاضعةٌ لسيطرته، كنت أسرق الدقائق من نهاري وأسهر الليالي، لم يكن لدي أوقات استراحة لأكتب فيها متى أشاء فأنا أمٌّ ولا يوجد لدي إجازات.

2023/6/4